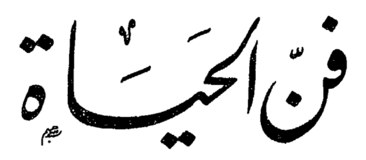
أندريه موروا

# فن الحياة

ترجمة

عبد المجيد أبو النجا

أندريه موروا



# فن الحياة

ترجمة

عبد المجيد أبو النجا

# فهرس

الصفحة

## ١ ـ فن التفكير



## ٢ ـ فن الحب



## ٣ ـ فن العمل

الصفحة

# ١
# فن التفكير

# ١ — العالم والفكر

إنى لأتجه ببصرى نحو نافذة غرفة مكتبى ، ولبرهة قصيرة يختلط فكرى بالصور التى تبدو مطبوعة على الزجاج . ومن وراء الشباك الهندسية الصلبة التى تكون حاجز الشرفة أرى أمواج نهر ( بوا ) الخضراء سابحة فى الضباب الخفيف المائل إلى الزرقة ، هو ضباب الأصباح الباريسية . وعند الأفق يمتد صف من الآكام . وعلى ( مونفاليريان ) الذى اكتسى سفحه بالأشجار القاتمة يقوم مستشفى ، يوحى إلى الذهن بأحد أديرة ( فلورنسا ) ، تكتنفه أشجار السرو السود . وفى السماء الشاحبة ، حيث تسبح السحائب الشفافة ، تحلق جماعات من طير السنونو . ومن بعيد جداً ، ناحية « فرساى » تحوم بضع طائرات وتئز .. إن هذه الطائرات لتثير أفكاراً عن الحرب ، عن الاغارات الجوية ، عن الجنيات التى تزأر فى الليل الساجى . وإنى لأتوقف عن رؤية الأشجار وعن الاستماع إلى شدو الطيور . فأتفكر فى فناء إحدى الحضارات ، فى نهاية الإمبراطورية الرومانية ، فى تلك المدينة الصغيرة على ساحل الجزائر التى كانت تبدو حوالى القرن الثالث لميلاد المسيح بديعة رائعة والتى أصبحت بعد مائة عام خرائب قفاراً رهيبة ، إنى لأفكر فيما عسى أن تكون يوما خرائب عواصمنا ومدننا !..

واذن فليست مناحى العالم الحاضرة فحسب ، وإنما صور البقاع النائية ، والأحداث الخالية ، وافتراض المستقبل غير المنظور ، كل هذا يصوغ مادة تأملاتى . انه ليبدو أن نفسى هى عالم صغير داخلى ينعكس عليه ، خلوا من

حدود الزمان والمكان ، العالم الخارجي الشاسع . . ويدعو الفلاسفة أحيانا هذا الأنموذج المصغر للعالم « بالعالم الصغير » ( Microcosme ) ، ويدعون « العالم الكبير » ( Macrocosme ) هذا الكون العظيم الذى نعيش فى كنفه ، والذى نؤمل فى تفهمه وتحويره . وكما كتب أحد الكيمائيين فى العصور الوسطى «فالنفس، كالفكر، تستحوذ على كل الأشياء التى يتضمنها العالم الكبير » والأولى بنا أن نقول إن النفس « تسعى » إلى الإحاطة بكل الأشياء ، وأن العالم ينعكس فينا مشوها ، كما تنعكس السماء والأزهار فى بركة الحديقة .

إنما أحدث هذا الخلط التام ، هو أن كل شىء هنا . الصورة والموضوع ، العالم الصغير والعالم الكبير ، فى حركة دائمة . وهناك صورة تبدو جلية بعض الجلاء : تلك هى صورة حاجز الشرفة ، وأوراق الأشجار ، والروابى والطيور ، تلك التى يقوم عليها الزمان والمكان الحاضران . أما كل ماهو تذكر أو رجاء أو تفكر فإنه يتأرجح كما تشاء له أمواج ذلك البحر الداخلى . فجهلى وعواطفى وأخطائى ونسيانى تغير حقائق الأشياء ، بينما هذه الأشياء ذاتها تتخذ فى كل آن أشكالا غريبة وجديده . إن العالم الرحب هو فى فكرنا كخريطة معالمها وحدودها مختلطة ، وخطوطها غير ثابتة ، ومع ذلك كان لزاما علينا كل حين أن نعين اتجاها ما على هذه الخريطة .

إن الرغبة فى التفكير بوضوح تقتضينا تمهلا طويلا وبحثا لا نهاية له . إن ضرورة العمل تلزمنا ، فاذا اعترى أحد أطفالنا سقم ، فما هى علته ؟ أجسدية هى أم خلقية ؟ ومن تجب علينا استشارته ؟ وما قيمة الطب ؟ أهو علم حقيق ؟ وما هو العلم ؟ إن هذه الأسئلة ، لكى تدرس دراسة جدية ، تتطلب

حياة بأكملها . ولكن ما العمل ؟ فيجب أن نجيب عليها فان مرضنا يموت إن الزمان يعوزنا للكشف عن العالم الخارجى ، والصورة الوحيدة التى يمكننا النظر اليها سريعا ، هى تلك الصورة الصغيرة المبهمة التى يقدمها الينا عقلنا .

إننا نسمى تفكيرا مجهود الإنسان لكى يحدس ، بترتيبه للرموز والصور ، الآثار التى تنجم عن أفعاله بين الأشياء الواقعية . فكل تفكير إن هو إلا خطوط أولية للفعل . وبمقتضى هذا التخطيط سترسم ، مع بعض التصحيح ، صورة حياتنا . ولنحسن العمل ، يجب علينا كما قال « بسكال » العمل مع حسن التفكير . وماهو « حسن » التفكير ؟ إنه يكون بأن نجعل من أنموذجنا الصغير الداخلى للعالم صورة مطابقة تمام المطابقة ، بقدر إمكاننا ، للعالم العظيم الواقعى . فاذا ماتوافقت قوانين عالمنا الصغير تقريبا مع قوانين العالم الكبير ، إذا كانت خريطتنا تمثل بدقة نسبية البلاد التى علينا أن نجول فيها ، فسيكون لدينا إذن بعض الحظ فى أن نريد أفعالا ملائمة ملاءمة طيبة لحاجاتنا أو لرغباتنا أو لمخاوفنا .

فهل من نهج ينهجه الإنسان فيسمح له بأن يقود أفكاره بطريقة تجعل أفعاله بدورها تجدسبيلاسهلا لها بين الكائنات والأشياء ؟ أمن الممكن أن نرسم مصوراً صادقا للعالم ، وأن نبحر تبعا لهذا المصور نحو غايات معينة ونصل إلى الثغر المراد ؟ هذا هو موضوعنا .

## ٢ — التفكير بالجسم

يظهر أن أنسب الأفكار لعالم الأشياء هى تلك التى رسمت فى الأجسام

الحية فى صورة غرائز أو عادات . فالقط يثب إلى مائدة تكدست عليها الأدوات فيعلوها بخفة ولطف من غير جهد ظاهر ، ودون أن يكسر كأسا أو يخدش إناء . فمثل هذه الحركات تفترض حسابا محكما للمجهود اللازم ، واختيارا دقيقا لنقطة الوصول . ولكن لا الاختيار ولا الحساب كانا مدركين . فالقط قد أفكر بعضلاته وبعينيه . فمن خلال صورة حاضرة تخيل حركات جسمه المستقبلة ، وصور الحركة هذه أوحت إليه بدورها المواقف التى يجب أن تتخذها فى كل لحظة مخاليه وظهره ورأسه .

وبنفس الطريقه يفكر لاعب التنس ، وكرة القدم ، ولاعب السيف ، والراقص على الحبل فجميعهم يفكرون بأجسادهم . فلاعب السيف ليس لديه وقت ليقول فى نفسه : « هاهو ذا منازلى قد كر كرتين ثم ارتد : واذن فلأقابله بهجومين مضادين وبضربة . » إنه إنما يفكر بسيفه وبأصابعه . ولقد كنت فى صباى أزاول ألعاب القوى على الآلات الرياضية ( جيمناستيك ) . وعلمت أنى لا يمكننى القيام بتمرين على القضيب المثبت ( العقلة ) أو المتوازيين إلا إذا تخيلت التمرين بدقة تامة . فاذا رأيت جسمى متزنا ، وإذا قست مقدماً سعة التأرجح بالضبط ، وإذا عرفت بوساطة هذا التفكير السابق ، الجزء من المائة من الثانية الذى يلزم أثناءه ان أقبض عضلات ذراعى أو أرفع ساقى نحو القضيب لأقوى من الدفعة ، عندئذ تصبح هذه الحركات هينة على كأنها حدثت بمعجزة . ولكن إذا وجد أتفه شق فى هذه القشرة الرقيقة من الصور ، إذا أعوزها الوضوح فى بضعة مليمترات ، فسرعان ماينقطع انتظام الحركة ويبدو الفعل مستحيلا .

وليس التفكير العقلى هو الذى يستحث المثال على أن يزيد قليلا من نحت انحناءة الفخذ . فبين عينيه المثبتتين على الأنموذج وبين أصابعه التى تداعب التمثال، توجد صلة مباشرة. فالصانع الحاذق والفنان ، كاللاعب الرياضى ، يفكرون جميعا بأجسامهم . بل إن بعض الكائنات الحية تتعلم التفكير بأجسام غيرها . فالحيوان الذى يعيش فى سرب يفكر بوساطة القطيع . فاذا دهم خطر قطيعا من الغنم أو الجياد فأفزعه وفر أمامه ، فان كل حيوان يتبع القطيع ، لا لأنه يعرف ويدرك سبب الفزع ، ولكن لأن تجربة الجنس ، الكامنة ، فى أقوى غرائزه وأعمقها ، علمته أن الكبش الذى يتخلف عن اتباع القطيع سيصبح تحت رحمة أعدائه . ومثل هذه الحيوانات ، جماعات الإنسان التى مازالت قريبة من الحالة البدائية ، وكذا الأطفال والجماهير ، فانهم يتأثرون إلى درجة كبيرة جداً بالأفكار الغريزية والبدنية .

رأيت على أحد المراكب طفلا فى الرابعة أو الخامسة من عمره ، قد استوى من الربان عليه ، يعبر وحيداً المحيط الاطلنطى . وما كان لشاب أبداً أن يكون قديراً على هذه الوقاية البارعة التى كان هذا الانسان الصغير يحدس بوساطتها الود الذى يحمله له البعض ، والضجر الذى يوحى به إلى الآخرين، كان يحب أولئك الذين يجب عليه أن يحبهم ، وينأى عمن ينبغى عليه النأى عنهم . لاريب فى أن هناك آيات ، خفية علينا ، تقود حركاته . ولتلاحظ المحبين الذين يتصالحون بعد خصام . إنه ليس التوضيح اللفظى الذى هدأ من غضبهم . إن زفرة قد تولد بسمة ، وقد تتقابل نظرتان فيتقارب جسدان . وإذا بالواحد بين ذراعى الآخر وهما على ثقة بترافقهما أقوى مما لو كانت الأحاديث الطويلة المسهبة قد حملت إليهما الوئام .

## ٣ — التفكير باللفظ

إذن فهناك تفكير بدنى يوجه بعضا من أفعالنا بأمان عجيب. غير أن دائرة تأثيره الفعلى ليست كبيرة. فالخلد[١] يفكر تفكيراً جيداً بقوائمه؛ ولكنه لا يفكر أبعد من قوائمه. فتلك التلال العديدة، البشعة، التى تتكون على العشب الأخضر من أكوام الطين التى يحدثها الخلد، إنه لا يعرفها، ولا يدركها، لاهى ولا حقد البستانى، ولا عواقب هذا الحقد الوخيمة التى تصيب جنسه جميعاً.. ولقائد الطائرة أفعال منعكسة صائبة هى التى توجهه ساعة الهبوط وتوصله إلى الأرض فى أمان من الخطر. ولكن ليس من المحقق أن الطائرة قد اخترعتها يد الطيار.. ورئيس الدولة، الذى عليه أن يدبر مالية أحد البلاد لا يستطيع التفكير بجسمه. كما لا يستطيع كذلك التفكير، كاللاعب الرياضى، بوساطة صور الأفعال، إذ أن عدد الصور التى تتداعى سيكون غاية فى الكبر. فاذا كان من الواجب عليه اصلاح الحالة الاقتصادية لملايين من الناس، فلن يمكنه أن يقول لنفسه: «إنى أعمل لهذا التاجر بالذات، أو لهذا المزارع الذى راعيته، أو لهذا المتعطل الذى أعلم عن بؤسه..» فهذه الصور المعينة للناس، وللمزارع، وللمنازل، وللأعمال، ينبغى عليه، كى يستحث تفكيره، أن يستبدل بها رموزاً،

---

(١) Taupe نوع من الثدييات، آكل للحشرات، لم تكتمل قوة أبصاره، ويعيش تحت الأرض.

وعلامات ، تمثل أحيانا كائنا أو شيئا ، وتمثل أحيانا أخرى كل أفراد المجموعة . وهذه هى الألفاظ .

والرجل الذى يفكر بيديه ، كالعامل ، والمشعوذ ، واللاعب الرياضى ، ينقل أشياء ذات ثقل ومقاومة : أحجارا أو كرات أو هو نفسه . أما الرجل الذى يفكر بالألفاظ فلا ينقل أكثر من أصوات أو اشارات . وهذا يجعل الفعل سهلا إلى درجة عجيبة . . فأنت فى الفندق صباحا ، تدق الجرس وتنطق بكلمة : « شاى » . فبعد بضع دقائق يوضع أمامك ، كما لو كان بفعل معجزة ، فنجان ، وطبق ، وملعقة ، وخبز ، ولبن ، ومربى ، وإناء من الشاى ، وآخر من الماء الساخن . تصور الأفعال المعقدة التى كان من الضرورى تأديتها كيما تقدم اليك هذه الأشياء . . أذكر الصينيين وهم يزرعون هذا الشاى ، ويجمعون أوراقه ، والسفينة الانجليزية التى حملته . والربان وبحارته أثناء نضالهم مع أنواء المحيط الهندى ، وراعى البقر فى « بيريجور » ( Perigord ) الذى ساق أنعامه إلى المرعى ، وحلبة الحليب ، وسائق القطار ، والخباز الذى صنع الخبز ، والفتيات الأسبانيات أو الريفيات الفرنسيات اللاتى جمعن البرتقال الذى صنعت منه هذه المربى . . . إن لفظا واحداً قد وضع كل هؤلاء فى خدمتك .

إن أثر الرجل الذى يفكر بيديه على العالم أثر محدود ، انه لا يمكن أن يؤثر إلا فيما يلمسه . والانسان الذى يفكر بألفاظ يمكنه أن يحرك ، دون جهد ، شعوبا ، وجيوشا ، وممالك . ومثل هذا رئيس الدولة ، ومثله رئيس الحكومة يلفظ كلمة « تعبئة » ، وبهذا الفعل البالغ البساطة الذى

لا يقتضيه غير تحريك شفتيه تحريكا طفيفا ، ينتزع رجال أوربا جميعاً من دورهم ، ومن بين أهليهم ، ويطلق فى السماء أسرابا من قاذفى القنابل يدمرون آلاف المدن ، ويعمل على فناء عالم وزوال مدنية . وحين يتفكر الانسان فى النتائج الممكنة لكلمة مفردة ، يدرك ما كان للغة عند الشعوب البدائية من قوة سحرية . فالهنود الذين ذكرهم « كبلنج » كانوا يجدون فى البحث عن « كلمة السر » ( Maître Mot ) التى تمنحهم السيطرة على الناس والأشياء . وكان « فاوست » يتصفح الكتب القديمة لمشعوذى الكيمياء كى يعثر على طريقة تحضير الأرواح أو طردها . وفى قصص « ألف ليلة وليلة » كانت كلمة « سمسم » ( أو سيسام ) تفتح الأبواب . انها خرافة قديمة ، ولكنها خرافة صادقة . ففى كل جماعة نجد كلمات تفتح الأبواب المغلقة ، وكلمات تستحضر أرواح الشر . وكل خطيب انما يكتسب عيشه من مثل كلمة « سمسم » ، وكل ثورة انما تشعلها « كلمة السر » . . .

والانسان الذى يفكر بيديه ينقل أشياء ثقيلة ، وينقلها بتأن ، لبنة إثر لبنة ، وحركة بعد حركة . إن حكمته إنما تكفلها نفس صعوبة أفعاله . إن هذا التوافق بين العالم الداخلى والعالم الخارجى الذى اعتبرناه كضمان للتفكير الصائب ، إنما اضطر إلى التزامه ، لأنه ان لم يلتزمه فستحطم الأحجار يديه ، وستفلت الكرة منه ، وسيهوى عن « العقلة » . أما ذاك الذى يفكر بالألفاظ ، فالأفعال عنده سهلة يسيرة ولديه بين الخطأ والجزاء فسحة من الوقت يزن فيها مسئولياته . وهو بتلاعبه بهذه الرموز الرشيقة ينسى الأحمال الجسام التى يجرها عليه كل منها . وانه لمفتون إذ يشترى ،

كما قال « لايبنتز » ( Leibnitz ) ، « قشور الألفاظ بلباب الأشياء » ، وإذ يعد كل شيء منتهيا لمجرد أن يضع كلمات قد لفظت .

وأسوأ ما في الأمر أن الأجسام تقاوم ، بينما بالألفاظ يستطيع الانسان أن يقول كل شيء . فلقد قال نابليون الثالث : « يجب احترام مذهب القوميات » . إن هذه إلا عبارة قيلت . ولكن هذه العبارة المجردة ، التي يمكن أن تبدو صادقة لأنها لاتثير أية صورة دقيقة ، قد دمرت أوربا الحديثة . . . وكتب أحد رجال الاقتصاد ، وهو جالس إلى مكتبه : « لئن إزدادت الأجور ، إزدادت قوة الشراء ، وإذن فقد زالت الأزمة » . وهذه الكلمات تنتظم فيما بينها مثل غيرها . إن لها مظهر التفكير الصائب ، وقد أعلنها رجل الاقتصاد عن عقيدة صادقة ونية طيبة . ولكن الواقع أن الحركات التي أقامتها لم تضع حداً لسوء النظام الاقتصادي . لماذا ؟ لأن العالم الصغير لم يستطع أن يجتذب العالم الكبير ، لأنه كان هناك تباعد بين الألفاظ والأشياء ، لأن بساطة العبارات لم تكن تمثل بدقة كافية تركيب الأشياء وتعقيدها .

## ٤ — المنطق والتفكير العقلي

إذا كان لزاما علينا أن نحكم على قيم العبارات والقواعد بما ينجم عنها من نتائج حسنة أو سيئة ، فسيكون في هذا الخطر كل الخطر . لذا كان من الطبيعي أن يبحث الحكماء ، منذ بدء الحضارة ، عن نهج أكثر أمنا ويقينا لتدبير واستخدام هذه الرموز الطائشة بحذق يقي من الزلل . وكما

ينظم الناس الآن حركة مرور العربات ، فقد سعوا إلى تنظيم حركة الكلمات . وهذا ماسموه فيما بعد المنطق . فالمنطق ينبغى أن يكون الفن الذى يتبع ، عند وضع الألفاظ ، قواعد معينة تكون هى أيضا ضمانا من الخطأ لأن قواعد العالم الداخلى هـذه ستوائم قواعد العالم الخارجى . إن مانسميه قوانين العقل الانسانى هى بعض قواعد الفكر التى تصدق على كل الناس وفى كل الأزمان . وبعض هذه القواعد واضح بين مثل مبدأ عدم التناقض : فالشىء لايمكن أن يكون فى نفس الوقت هو ذاته ونقيضه . فالانسان لايستطيع أن يقول كل شىء . إنه لايستطيع أن يقول فى وقت واحد : « إثنان وإثنان يساويان أربعة » . و : « إثنان وإثنان يساويان خمسة » . وهو لايستطيع أن يقول : « هذا الرداء أبيض » و : إنه أسود . » . « أود لو كان هذا البلد مستقلا » و « أود لو أنه كان محتلا » . ولقد أملت الانسانية زمنا فى أن تتمكن من أن تستخلص ، من المبادىء الوضحة ، نوعا من قواعد الفكر ( كقواعد اللغة ) تعصمنا من الخطأ . هذا المنطق ، منطق أرسطو أولا ثم منطق المدرسيين فى العصور الوسطى ، بعيد عن أن يكون تعليما تافها . انه يجعل التفكير فى مأمن من بعض الأخطاء ، بيد أنه قاصر عن إقامة فن للتفكير . وهاك السبب :

إن المنطق لا يقدر على ابتكار شىء جديد . ويتهمونه بأنه لاينفك يكرر إلى مالا نهايه أن ا هى ا . وهو إن أضاف شيئا ما ، فان هذه الفكرة الجديدة لا يمكن أن يستعيرها إلا من التجربة أو من الحدس ، وكلاهما بعيد عن المنطق. إنه يسمح لنا بالقول إن « هذا الرداء رداء » . ولكن التجربة وحدها هى

التي تبيح لنا إضافة أن هذا الرداء بال أو أنه ذو ثنيات . أما الأمل في أن يستغني العقل البحت عن التجربة ، فقد أزال « كانت » ( Kant ) هذا الحق : « فالعقل لولوعه ببسط معارفه ، مؤيدا بآيات قدرته ، يعتقد أنه يبصر ميدان اللانهائي مفتوحا أمامه . فالورقاء الرشيقة عندما تشق في طيرانها السريع الهواء الذي تحس مقاومته ، يمكنها أن تعتقد أنها ستصعد أفضل في الخلاء . . . . . كما أن أفلاطون ، وقد حقر العالم الحسي الذي يحصر العقل في حدود ضيقة ، قد اقتحم الخلاء للامتداد البحت . إنه لم يدرك أنه لم يتقدم شيئا بالرغم من مجهوداته ، اذ تعوزه نقطة ارتكاز ضرورية يستند اليها ويمكنه أن ينقل فيها الامتداد » . إن عددا كبيرا من مصلحينا السياسيين يتأرجح عبثا في خلاء الامتداد البحت .

ولا ريب في أن المنطق قد راض العقول ، فقد وهبها مرونة لم تكن لها من قبل ولكنه وهبها أيضا عادة خطيرة ، عادة الاعتقاد بأنها قديرة على اكتساب كل شيء إذا ما صاغته في برهنة مظهرها سليم صادق . فتاريخ المذاهب المختلفة يبين أن الناس ، على مر الزمان ، استطاعوا البرهنة على كل شيء تقريبا . انهم أثبتوا صدق الفلسفات المتناقضة المتعارضة ثم أثبتوا كذبها وزيفها ؛ لقد أثبتوا ضرورة الديموقراطية ، واستحالتها . وأثبتوا تمايز الأجناس ، وتآلفها . ويقول الفيلسوف « ألن » ( Alain ) : « كل برهان هو عندي معيب مثلوم . » والواقع أنه يمكن اثبات كل شيء ، إذا كانت الألفاظ المستعملة غير واضحة الحدود ، بينة المعاني .

فالبرهان سليم ، لا يمكن نقضه ، عندما يستخدم في علم الجبر ، إذ أن كل تعبير هنا محدد بغاية الدقة حتى أن المبرهن لا يمكنه أن يزيد عليه شيئا أكثر

مما يفهمه المستمع . واذن فالذاتية المنطقية ذاتية حقيقية . أما الألفاظ المستعملة فى الكلام عن المشاعر ، أو عن سياسة الدول ، أو عن الاقتصاد ، فهى ألفاظ غامضة ، يمكن استعمالها ، فى برهان واحد ، بمعان عديدة مختلفة . فالبرهنة بلغة رديئة ، هى كالوزن بموازين باطلة .

## ٥ — المنهج الديكارتى

والمنهج الديكارتى محاولة لاستبعاد بعض أسباب الخطأ من مثل هذه البرهنة العقلية . يقول ديكارت (Descartes) : « كان لدى رغبة ملحة فى أن أعرف كيف أميز بين الصواب والخطأ لأكون على هدى فى أفعالى ولأسير بأمان فى هذه الحياة . » . . . وجدير بنا أن نذكر القواعد المشهورة التى قام عليها « فن التفكير » لديه . فالقاعدة الأولى : لا تقر صحة شىء لا تعرف تماما أنه صحيح . . وقد يبدو هذا سهلا هينا . . . فستقول . « لماذا أقر بصحة شىء إذا لم أعتقد أنه كذلك؟ » ويجيبك ديكارت بقاعدة أخرى : تجنب تماما التسرع فى الحكم ، والحكم غير المروى أو سبق الحوادث .

التسرع فى الحكم ، لأن الانسان لا يمكنه أن يفهم الصعب فورا . . فالطالب الذى يقفز بضع صفحات سيظل دائما جاهلا بالهندسة . ولكن البشر مضطرون . فالبعض تضطره الضرورة : إن عليه أن يجتاز امتحانا فى تاريخ معلوم يجب عنده أن يكون قد درس علما كاملا وعصرا بتمامه من عصور التاريخ . . ولقد وعد الخبير بتقديم تقريره فى يوم محدد ، والحكومة تنتظر ، فاذا تأخر ، اتخذ أولو الأمر ضده إجراء جائرا . فلئن يقدم تقريرا ناقصا خير

من أن لا يقدم تقريرا بالمرة . . . ويطمع الصحفى فى بضع ساعات زيادة ليدرس موضوعا جديدا غامضا ، ولكن عمال المطبعة يلحون فى طلب « الأصول » ، والصحيفة يجب أن تلحق بقطار الساعة الثانية صباحا . إن العمل يفرض مهلته .

وآخرون مدفوعون بكبريائهم ، إنه ليشق عليهم أن يعترفوا بجهلهم بالأشياء ! فالإخصائى يعتقد أنه من المشين أن يجيب : « سأدرس المسألة ثانية . . . » ولتصخ السمع ، فى البرلمانات ، وفى الاجتماعات ، وفى المكاتب العمومية ، كما لو أن القوم يفصلون فى الأمر بسلطان مبين . . فهذا يحدثك عن تشيكوسلوفاكيا ، أو اثيوبيا ، أو هنغاريا ، تلك البلاد التى لم يذهب اليها أبدا ، بل والتى لم يدرس أبدا تاريخها ولا عاداتها . . . . وهاك آخر يقضى بأحكام مهينة على طيراننا . بينما كل ما يعلمه عنه قد جاءه عن طريق السماع ، ومن شهود غير عدول . . . وثالث يمزق عرض احدى السيدات ، ويقص عنها بلغة الواثق ، أقاصيص كلها باطلة . إن القيمة العادية للأحاديث يمكن تحسينها تحسينا عجيبا باستعمالنا الثابت لهاتين الكلمتين البسيطتين : « لا أعرف . . . » أو لتلك الكلمة المشهورة عن لويس الرابع عشر « سأرى » . وإذا نحن آلينا على أنفسنا ألا نقطع ابدا بأمر بغتة ، وألا نندفع أبدا فى حكم جائر ، فسنكون بذلك قد خطونا خطوة واسعة نحو الحكمة الديكارتية .

وليس التسرع فى الحكم هو السبب الوحيد للخطأ فهناك أيضا الحكم غير المروى . فلسنا كالمرايا المصقولة ، وانما كالمرايا المشوهة . إننا لا نواجه المشاكل كالصفحات الصافية الشفة ، وانما نواجهها بآراء الأسرة والعشيرة ،

أن طبيعتنا ، ووراثتنا ، وثقافتنا انما تفرض علينا مشاعر واحساسات مختلفة . أترغب فى أن تقيس تأثير عشيرتك على عقلك ؟ تذكر الأحكام المتتالية التى أصدرتها على كليمنصو ، وعلى كايو ، وعلى دلاديه ، تبعا لما قدمتهم اليك جرائدك ، على جبينهم تاج الفخار أو وصمة العار . لقد أبغضتهم ، أو أحببتهم ، كنت صادق النية ، ولكن لم تكن صائب الرأى .

ومنافعنا هى سبب آخر للحكم بغير ترو . وقد قال « بسكال » إنه إذا كانت الهندسة تعارضت مع عواطفنا كالسياسة ، لما كنا برهناها هكذا جيدا . من هم أولئك الرجال الذين ، قبل أن يقروا نظاما للضرائب ، لم يقوموا بحساب ما سيكلفهم أياه ؟ انهم يوجدون ، ولكنهم قليلون . تصور طبيبا ، قد أقام على نظرية طبية طريقة للعلاج تتيح له الثراء والتمجيد ، ولتفرض أنه اكتشف بطلان هذه النظرية ، ألا تعتقد أن عقله سيلهمه ألف سبب وجيه ليرتاب فى صدق الاعتراضات ؟

إن كل ما يأتلف مع عواطفنا يبدو لنا حقا ، وكل ما يتعارض معها يثير سخطنا ... ولنتدبر فى حياة ، شاتوبريان » السياسية فشاتوبريان الذى ثقفته الثورة ، قد أصبح ، إبان منفاه ، مشايعا للملكية الدستورية الانجليزية . وبعد حركة الاصلاح ، سعى لويس الثامن عشر فى منح فرنسا هذا الحكم . فلو لم يطع شاتوبريان عاطفته ، لوجب عليه أن يعضد بكل قواه مسعى الملك . ولكن شاتوبريان قد أثار غضبه أن لا يقع عليه الاختيار فى تدبير هذه السياسة بنفسه . فلأنه لم يعامل بانصاف ، اشتعلت عواطفه حقداً على الملك وعلى ديكاز ( Decazes ) ثم أخيراً على فييل ( Villèle ) وأدى به ذلك إلى محاربة

مبدئه الخاص ببراهين تبدو ، نظراً لأسلوبه الجميل، رائعة فى الظاهر ، ولكنها سخيفة فى الواقع . . وليس ثمة من استحالة أو تعارض تعجز العاطفة عن أن تقود الإنسان اليه . فحين يأمر الحب أو البغض فلا بد للعقل من أن يطيع وأن يجد أسبابا يبرر بها حمقهما . ومرة أخرى : فكل برهان فى رأينا معيب مثلوم . إذ يستطيع الإنسان إثبات كل شيء إذا ماأراد ذلك بإلحاح .

ويعتقد البعض أنهم أحرار مستقلون عن وسطهم وديارهم لأن أحداث حياتهم قد بثت فيهم شعور الثورة والتمرد . ولكن هذا العداء ليس ضمانا للتحرر . إنه على العكس صورة جلية من صور التعسف فى الحكم . فالكاتب الذى كابد أذى وجوراً فى طفولته سيصبح رمزاً للعقلية المتحررة فى محاربة الدين والأسرة ، ولكن ثورته هذه ستكون ثورة العبد الرقيق ... والذى يهجر وطنه يظن أنه يؤكد تحرره حين يهاجم الحاكم الظالم ، ولكن أتراه قديراً على الحكم على نظام وبلد أساءا معاملته ؟ لم يخطر ذلك ببال ديكارت . فبعض الناس يفكر مع العشيرة ، والبعض الآخر يفكر ضد العشيرة . وهذان شكلان مختلفان ، ولكنهما متعادلان فى التعسف فى الحكم وعدم الروية فيه .

إن ما ينصحنا به مؤلف « مقال فى المنهج » ، هو أولا أن نخلص عقلنا من العواطف ، ثم أن نحسن استخدامه . ولأجل هذا يدلنا على عدد من القواعد : « أن نقود أفكارنا بنظام بالسير من الأبسط الأوضح إلى الأكثر تعقيداً وغموضا ... أن نجزء الصعوبات إلى أجزاء صغيرة بقدر المستطاع ... أن نقوم بإحصاء شامل وإعادة عامة حتى نتأكد من أننا لم نترك أو نهمل

شيئاً . » ولا شك فى أن هذا النهج قد قدم خدمات جليلة ، أولا إلى ديكارت نفسه ، ثم إلى علماء عصره الذين تقدموا باتباعه تقدما بعيداً فى الرياضة ، والميكانيكا ، والفلك ، وفى جزء من الطبيعة . وقد ظلت هذه القواعد صحيحة فى نواح أخرى . « ولم يظهر « كانت » على ديكارت كما ظهر الكاوتشوك المطاط المفرغ على الكاوتشوك المصمت »[1] . فقد بقى للمنهج الديكارتى فى كل مرة يستخدم فيها أثر فعال عجيب على العقل ، سواء فى الكشف عن قوانينه الخاصة ، كما فى العلوم الرياضية ، أم فى دراسة الظواهر التى بسطها التجريد أو الأبعاد ( كما يحدث فى علم الفلك . ) ولكن حين يراد تطبيقه على علوم أكثر تركيبا ، يبدو ، ليس عديم النفع ، ولكن غير كاف .

وفى جزء كبير من علم الطبيعة ، وفى الكيمياء ، وعلم الحياة ، والطب ، والاقتصاد ، والسياسة ، لم يعمل المنهج الديكارتى ، مع بقائه ضابطا ضروريا ، على حل المشاكل ، كما لم يكف لتنظيم أفعالنا . وكيف « نقود بنظام أفكارنا » عندما يصبح عامل « الزمان » العامل الأساسى ؟ كيف لا نترك شيئا عندما تكون الكميات المعطاه فى المسألة لا حصر لها ؟ إن المنهج يصور فينا عالما صغيراً من البلور والفولاذ تتداخل أسنان آلاته ، المرتبة ترتيبا دقيقا ، بإحكام عجيب . ولكننا نعلم جيداً أن العالم العظيم ليس صورة لهذه الساعة المحكمة الرقيقة . فأوراق الشجر التى تذروها الرياح ، والسحب التى تطاردها العاصفة ، ومشاق الريف وأهواء المدن ، كل هذا ليس له ها هنا مكان .

---

(١) بيجى ( Péguy )

## ٦ — المنهج التجريبي

ما كان لأى استدلال عقلى ، مهما اتقنت صياغته ، وبرأ من التسرع فى الحكم وسبق الحوادث ، أن يعيننا على التنبؤ بشكل الشجرة التى ستنبت من حبة شجرة التفاح . ولا بطعم الثمرة التى ستحملها هذه الشجرة . وما كان لأى قياس أو أية نظرية أن تتيح لنا وصف المرض الذى يمكن أن تولده جرثومة مجهولة عند مريض سيلقح بها . فليس لعقلنا ، وإنما للطبيعة ، لعالم الأشياء ، يجب أن توضع مثل هذه المسائل . إن المنهج الذى منح الإنسان ، منذ قرنين ، سلطانا عظيما على العالم الخارجى هو خليط من المنطق ، والملاحظة والتجربة . وليس الاستدلال العقلى بمستبعد منه ، وانما ستقاس نتائجه باستمرار بالحقائق ، فنقرها إذا أيدتها ونقصيها دون رحمة إذا تعارضت معها .

وينسب المنهج التجريبى أحيانا الى « بيكون » ولعله هو أول من وضع لمبادئه قواعد واضحة ، ولكنه كان مستخدما دون ادراك منذ أبعد العصور القديمة . فكل بدائى قد زاول التجربة دون أن يعرف ، مثلما مارس مسيو جوردان ، [1] الكلام المنثور دون أن يعرف ... وكل منا يقوم باجراء تجارب

---

(١) « مسيو جوردان » الشخصية الأولى فى مسرحية موليير الهزلية ( Le Bourgeois Gentilhomme ) ، تمثل تاجراً حل به الثراء فأراد أن يتناسى ماضيه . ولكى يكتسب صفات النبلاء وهيأتهم راح يتلقى دروساً فى كل شىء . وكم كانت دهشة مسيو جوردان حين علم من أستاذه فى الفلسفة أنه يعرف « النثر » منذ أربعين سنة دون أن يعلم هو بذلك من قبل !

عدة مرات فى اليوم . فغرفة مكتبى محاصرة هذا الصباح بالزنابير . فلأبحث عما عساه قد اجتذبها . . . لعلها هذه القرنفلات ، التى على المائدة ، ورائحتها ؟ مهما يكن الأمر ، فانى أرفع الزهور .. فما هى إلا دقائق معدودات حتى تختفى الزنابير .. الاختبار العكسى . فلآخذ هـــذه القرنفلات إلى الغرفة المجاورة وأضعها ثانية على المائدة ، فتعود الزنابير مرة أخرى . لقد كشفت عن قانون للطبيعة ؛ وسآمر بأن لا توضع بعد الآن زهور على مائدتى فى هـــذا الفصل من السنة .

والمنهج التجريبى ، بردة إلى عناصره الأساسية ، منهج سهل . أنه يقوم كما يقول « كلود برنار » ( Claude Bernard ) « على اخضاع أفكارنا ، بطريقة منظمة ، لاختبار الحقائق » . فالملاحظات تلهم الانسان عمل الفروض على العلاقات التى بين الظواهر . ولتحقيق هذه الفروض يعمد العالم نفسه الى اثارة ملاحظات جديدة أكثر احكاما . ويقول ( كفييه ) ( Cuvier ) : « إن الذى يلاحظ انما ينصت الى الطبيعة ، أما المجرب فانه يستفسرها ويضطرها إلى أن تسفر له عن وجهها » ... فهو مثلا يغير العلة ويراقب ما يطرأ على المعلول من تغيرات فاذا لاحظ علاقة ثابتة بين العلة والمعلول تأيدت فكرة ما بينهما من رابطة . ومع ذلك فان الخطأ محتمل الوقوع . فالمبدأ الذى يقول : « لاحق له ، اذن فهو نتيجة له » ، مبدأ خطأ فى العادة . لأن حربا تنشب بعد كسوف ، ليس سببا لأن يكون الكسوف علة للحرب . ويحكون فى « اكسفورد » حكاية الطالب الذى كان يشرب كل ليلة عدة كؤوس من « الويسكى والصودا » فيجد أفكاره بعدها مشوشة مضطربة . فامتنع عن الويسكى واستبدل به « البراندى

والصودا » ولكنه ما انفك يشكو الخمار ؛ فجرب « الجن والصودا » واستنتج أخيراً : « قطعا ، إنها الصودا » .. فلو أنه كان مجربا أكثر حصافة لقام باجراء اختبار عكسى » . فاستبعد الصودا عن الويسكى والبراندى والجن واذن لتبين له خطؤه .

فالعالم هو الذى يستخلص ، من ملاحظاته وتجاربه ، الفروض على العلاقات الثابتة للظواهر . فاذا حققت كل التجارب المعقولة فروضه اتخذها وقتيا قوانين للطبيعة . ففى كل مرة أفلت شيئا من مكان عال عن سطح الأرض ، يسقط هذا الشىء . ويمكن حساب سرعة سقطته ، وتكون درجة ازدياد السرعة فى مسافة معلومة ، ثابتة . فنقرر اذن وجود قانون لسقوط الأجسام . والعلم ، الذى هو جملة مثل هذه الملاحظات ، لا يعطى بأية طريقة تفسيراً للعالم ، إنه فقط ، كما يقول « فالرى » ( Valéry ) « مجموعة ما حصلناه وصادف نجاحا » .. وقد لا يحالفه النجاح فيما بعد . فلو اننى فى هذه اللحظة أفلت الكتاب هذا من يدى ، ولو أنه بدلا من أن يسقط صعد نحو السقف ، فانه سيملكنى العجب ، ولكن لن يضطرب العلم لذلك وينقلب . بل عليه فقط أن يبحث عن قانون أكثر تركيباً يدخل فى حسبانه هذه الظاهرة .

ولا يفترض العلم التجريبى إلا فرضا ميتا فيزيقيا واحداً ، ذلك هو ثبات قوانين الطبيعة . فإذا نحن لم نعتقد بأن الطبيعة تخضع ( أو يبدو أنها تخضع ) لقوانين ثابتة ، فسيكون من العبث ولاشك ملاحظة الظواهر . فلو أن الماء ، تحت ضغط واحد بعينه ، بلغ حد الغليان يوما فى درجة خمسين ، ويوما عند درجة خمس وسبعين ، ويوما آخر فى درجة المائة ، دون أن يمكن للإنسان

معرفة أية وسيلة لاستدراك هذه التغييرات ، فستصبح كل دراسة لعلم الطبيعة لا نفع فيها .. ومن حسن الحظ أن الأمر ليس كذلك ، فالظواهر تبين ثباتا عجيباً . لماذا ؟ إن الباحث الميتا فيزيقى ، ورجل اللاهوت ، والعالم الرياضى أيضا يقيمون على ذلك بعض آرائهم . والمجرب كذلك لا يعرف شيئا يهمه غير هذا ؟ انها حقيقة ثابتة ، إن المنهج القائم على ملاحظة الظواهر ، وعلى استخلاص الفروض من هذه الملاحظات ، وعلى تحقيق هذه الفروض بالتجربة وإهمالها إذا لم تحقق ، وعلى تنظيم سيرنا على القوانين التى تبدو متينة محكمة ، هذا المنهج الذى يتحكم فى الطبيعة بخضوعه لها ، كما يقول بيكون ، قد تمخض عن نتائج مدهشة باهرة .

ولأن المنهج التجريبى يقيم روابط ثابتة بين بعض الظواهر التى يمكن أن تنتج بسهولة عن القوى الانسانية ، وبعض الظواهر الأخرى التى تقتضى ، إذا سعى الانسان لاحداثها مباشرة ، قوى لانهاية لها ، فانه يتيح للانسان أن يكون أقوى إلى حد بعيد من الانسان . فعندما يحرك طفل ، مستعينا بعصا ، جميع آلات أحد المعارض ، يكون هذا المنظر رمزاً للقوة التى يضعها العلم فى خدمة أقل البشر شأنا . إنها لقوة عجيبة ! فمن المدهش أن حشرة ، ألقى بها إلى العالم على قطرة من الطين ، تصل ، ليس إلى قياس البعد بين كرتها والكرات الأخرى فحسب ، بل يتناول بالتحوير فيها فى بضع سنين المناخ ، والنبات ، والحيوان .. من المدهش أنها تركب آلات وأجهزة قديرة على أن تطوف بها حول كرتها فى ساعات معدودات . من المدهش أن تقهر البرد ، والظلام ، والجوع .

فالمنهج العلمى ، مرة أخرى لايفسر العالم ، وان يفسره أبدا . ولكن من الطبيعى ، وقد رأينا مامنح الانسان من سطوة على الظواهر الطبيعية والكيميائية وكذا البيولوجية ، أن يقول الكثيرون : « لم لايطبق على حياة الجماعات الانسانية فن للتفكير قد نجح هكذا نجاحا باهرا حين طبق على العالم الطبيعى ؟ لم لايعمل هذا المنهج ، الذى أتاح لنا ابتكار هذه المصانع الهائلة حيث يقوم « الانسان الصناعى » المصنوع من الفولاذ والنحاس ( Robot ) مقام سواعد الرجال ، لم لايعمل هذا المنهج أيضا على سعادة أولئك الذين حلت محلهم الآلات ؟ لم لا يتيح المذهب ، الذى أتاح خلق أجناس من الحيوان وأنواع من الزهور ، لم لا يتيح كذلك خلق الانسان المتفوق ( السوبرمان ) ؟ لقد قال اللورد سالزبرى ( Salisbury ) حين أخذت أبناءه حمية الحديث فى السياسة : « تعالوا نسع إلى التفكير فى ذلك كيميائيا ».. لقد عنى بذلك : « فلنحاول أن نفحص العناصر الانسانية كما نعامل العناصر المادية فى تجربة كيميائية . وعلينا أن لا نحكم مقدما على نتيجة التجارب . ولنضع ما نحصل عليه فى « المعوجة » ثم نسخن ونلاحظ التفاعل ، فاذا كان متعارضا مع مذهبنا عدلنا عن هذا المذهب ».. ستكون هذه سياسة علمية . فهل هى ممكنة ؟ وهل يكون للعلم الكلمة الأخيرة فى فن التفكير؟ » .

## ٧ — نواحى النقص فى التجربة

وبعد بضعة عقود من الآمال الكبيرة ، عقود أمل « رينان » ( Renan ) فى بدايتها أن يرى كوكبنا يحكمه علمياً أعضاء المعهد العلمى ، وفى نهايتها

تصور « برتراند رسل » مجيء يوم يمكن لآلة أن تعين بدقة ماحدث فى دقيقة معينة من التاريخ وما سوف يحدث فى دقيقة معينة من المستقبل ، ينبغى علينا أن نعترف ، ويا للأسف ، أن المنهج التجريبي ، بعد أن منحنا ، على العالم الخارجى ، تلك القوة المدهشة التى وصفناها ، لم ينتج إلا القليل من النتائج السارة فى دائرة الحياة الخلقية ، والسياسة ، والاجتماعية .

وانه لمن السهل أن ندرك السبب : أولا — تتطلب التجربة نظاما من العمل يمكن عزله صناعيا . فاذا أردنا أن نعرف فى أى الظروف يغلى الماء ، فاننا نعزل مجموعة من الأشياء : حرارة ، آنية ، سائل . ونخضعها لضغط معين ثم نروح نبعدها عن كثير من المؤثرات الخارجية . وكل تجربة من هذا النوع فهى مستحيلة إذا أردنا إجراءها على الجماعات المركبة التى لايمكننا تجزئتها لنعزل جزءاً منها .

ثانيا — يتطلب اجراء التجارب إمكان اعادة التجربة ، إذا لزم الأمر ، وتوكيدها عند الحاجة بتجارب عكسية (Contre-Expériences) وتجارب مؤيدة ( Expériences-Témoins ) وهذا كله عسير فى علم النفس ، مستحيل فى علم الاجتماع . فأين هو رئيس الدولة العاقل الذى سيحاول أن يستبعد طائفة من المواطنين « ليرى ماسيحدث » ؟ وأين هو ذلك الشيوعى الذى سيرضى ، من أجل تجربة عكسية بريئة ، أن يعيد نظام الرأسمالية ؟ .

ثالثا — وأخيراً يتطلب المنهج التجريبي من المجرب الاخلاص وصدق النية وعدم التأثر بنفع ذاتى . وهذه الفضائل التى يندر توافرها فى التجارب العلمية التى ليس من شأنها أن توقظ العواطف القوية ، تصبح فوق طاقة البشر حين تتدخل هذه العواطف .

إن البحث العلمى عن الحقيقة يقتضى أن لا يتعلق العقل أبدا تعلقا قويا بأحد الفروض . « فلئن كان واجب العالم الأول هو أن يبتكر مذهبا، فواجبه الثانى هو أن لا ينظر اليه بعين الرضا » ، أو على الأقل أن ينظر اليه مجردا عن الهوى . ولكن الانسان بشر ، ولا شيء مما يعتقد أنه وصل اليه يكون غريبا عليه . إن « بوشيه » ( Pouchet ، العالم الطبيعى الفرنسى ) ، لم يشأ الاعتراف بأن « باستير » ( Pasteur ) كان على حق . وعالم الطبيعة الذى ظن أنه اكتشف أشعة ( N ) لم يرد الاقرار بخديعته . ان الرغبة فى اكتشاف قانون تؤدى بالباحث ، دون وعى منه ، ولاشباع رغبته ، إلى الانحراف بنتائج التجربة .. فى الطب ، يعتقد كل طبيب اخصائى ، وعادة عن عقيدة صادقة ، ان كل مريض سيشفى إذا عولج من الناحية التى تخصص هو فيها . فطبيب الأمراض العقلية يقول لك : « ان كل الأمراض تقريبا أمراض نفسية » . وسيرى اخصائى الغدد الصم مرضا فى الغدد حيث لن يكتشف اخصائى المعدة إلا اضطرابا فى دولابه الزجاجى الخاص يحتاج إلى تنظيم وترتيب .

وما زال الطب علما فى بعض أجزائه ، إنه لايعالج إلا جسما بشريا معينا يمكن ، اذا لزم الحال ، عزله عزلا جزئيا أثناء القيام بالتجربة . ولكن عندما يكون الأمر أمر انفعالات وعواطف الملايين من الأجسام ، كما يحدث فى الاقتصاد أو فى السياسة ، فان أكثر النظريات تضاربا يمكن أن تدعمها « جميعا » الحقائق . ومن حقنا القول بأن التجربة قضت بفشل الاقتصاد الحر فى القرن التاسع عشر من حيث أنه انتهى بتمخضه ، فى عصرنا ، عن اشتراكية الدولة . ولكن يمكننا القول كذلك بأن التجربة قد

أدانت الاشتراكية لأن هذه، كيما تنقذ من الدمار الشامل الجماعات التى غزتها، قد اضطرت إلى اعتناق أو إحياء أشكال قديمة للملكية الشخصية.

أمن الممكن أن تستخلص قوانين من مثل هذه التجارب؟ كلا ولاشك، إذ أن ما يجعل التجربة علمية، هو كثرة عدد التجارب وامكان تكرارها. فى الاقتصاد تتطلب كل تجربة حياة أجيال عديدة من الناس. وما نسميه تجربة «روزفلت» وتجربة «بلوم» ماهى إلا أوجه قصيرة الأمد لدورات (كدورات الأفلاك) أغلى كلفة من أن نستطيع تحريكها برغبتنا وأبعد مدى من أن نستطيع ملاحظتها ملاحظة كاملة، وأشد خلطا واضطرابا من أن ترشد الأجيال القادمة حيث لن يكون الحال أبدا هو نفس الحال تماما.

وما هو صواب فى الاقتصاد، هو أيضا صواب فى السياسة. يقولون لنا: «لقد قامت انجلترا بتجربة الديموقراطية فكانت تجربة موفقة». ولكن هذا تفكير ليس على شيء من التفكير العلمى. فالشعوب الأخرى ليست هى الشعب الانجليزى. والديموقراطية ليست إلا كلمة يجب أن تدخل تحتها حقائق واقعة، والحقائق الإنجليزية ليست هى حقائق فرنسية، ولا حقائق أسبانية، ولا حقائق ايطالية: فالديموقراطية الانجليزية تتضمن ظروف الحياة السياسية الانجليزية، روح المناقشة العامة والتحكيم، حدة المعيشة المحلية، الوفاق بين ارستوقراطية صريحة وبورجوازية تقبلها بجانبها، الاتفاق بين البرلمان وصفوة رجال البلاد، الملكية الدستورية.

ومقابلة الديموقراطية بالفاشية، هى مقابلة بين لفظين، لا بين حقيقتين ولا بين تعريفين دقيقين. فبين الحرية الكلية والسلطة المطلقة، نجد أشكالا

معقولة من الجماعات لاعدد لها ، بل ومتحققة فى الواقع . فكيف القيام بتجارب لمعرفة ما إذا كانت الحرية تفضل السلطة المطلقة ، بينما لا توجد أية وسيلة لقياس درجة حرية شعب من الشعوب ؟ ولا يعنى هذا أن شكلا معينا من الحرية لا يكون مرجواً ، ولا يعنى هذا أنه لا توجد ' لشعب ما فى عصر معين ، حقيقة سياسية ، وانما يعنى هذا أن تلك الحقيقة يجب أن تكتسب بوساطة مناهج ليست هى مناهج العلوم .

« التفكير كيميائيا » فى المنازعات السياسية ؟ لعله من الواجب أن نحاول ذلك ، ولكن من الإخلاص أن نعترف أنه سيكون ، فى عدد كبير من الحالات ، مستحيلا . وهذا هو السبب فى أن كثيراً من الناس ، سديدى العقل حين يتكلمون فى مهنهم ، يخرفون إذا ما جاوزوها إلى المبادىء العامة . فعند ما يكون المراد هو اصلاح ماكينة كهربائية ، فان العالم الصغير الذى تمثله فى عقل المهندس يرسم مصورا متقنا اتقانا يسمح للفنى بالحركة عن ثقة بين الأسلاك والملفات . ولكن عندما يكون الأمر أمر إصلاح بلد ، فليس ثمة مصور للحياة الاجتماعية يمكن أن يهدينا عن يقين إلى التقدم والرفاهية . وليس حظ المنهج التجريبى بأوفر من حظ التفكير البحت ، فانه ، وان طبق بإحكام ، لا يمكنه أن يرشد وزيرا ، أو مشرفا على مشروع ، أو قائداً للجيش .

ومع ذلك فانه يجب عليهم أن يعملوا ، أن يقطعوا فى الأمر ويبتوا . . فماذا يعنيهم من أسباب الاختيار ؟ لقد كتب « ألن » يقول ، وهى كلمة ذات معنى بعيد الغور « إن التنفيذ ينبغى أن يسبق الارادة » . فنحن انما نحققها حالما نعمل . فالجرو الذى تلقى به فى اليم يعوم ولو لم تكن له أية تجربة عن العوم . إنه يعوم قبل أن يريد العوم . وجميعنا ، منذ الولادة ،

حيوانات صغيرة ألقى بنا إلى خضم الكائنات فرحنا نسبح ، أحسنا السباحة أم أسأناها . والكاتب الذى يشرع فى كتابة قصة لا يعرف بدقة ما يريد كتابته . فلو أنه عرف ذلك ، كلمة بكلمة ، فستكون قصته مكتوبة من قبل . لقد ألقى بنفسه إلى الماء . وكل فصل يكتبه سيملى عليه الفصل التالى . فالتنفيذ يسبق الارادة .

وقد يكون من الضرورى عمل المشروعات ورسم الخطط ، ولكن رسم المشروعات والخطط ليس عملا . وفى جميع « القهاوى التجارية » يعرض الخطباء خططا تدعو إلى الإعجاب : « إذا كنت رئيسا للوزارة . . . لو كنت موسولينى ... إن كنت وزيرا للطيران ... » كتابة مشروع لسلام دائم ؟ لعب أطفال ، وقد نجح فيه « ولسون » . أما أن تحفظ السلم على أوربا مدة شهرين ، أو مدة عامين ؟ فإنه عمل فوق قدرة البشر . ويقول « جيته » : « التفكير هين ، والعمل عسير ، أما العمل طبقا للتفكير فهو أصعب شىء فى العالم . » ويقول « تولستوى » : « إن كتابة عشرة مجلدات فى الفلسفة لأسهل من تحقيق مبدأ واحد . » ففى أكبر عدد من الحالات ، والحالات الأكثر أهمية فى حياة الانسان ، يجب علينا أن نتلمس طريقنا فى تيه العمل ، حتى عندما نكون بعيدين عن الحصول على كل ما يكون المصور المرشد . فماذا يصبح إذن فن التفكير ؟

## ٨ — التفكير والعمل

بينا منذ بداية هذا البحث ما للتفكير الغريزى من اليقين والعصمة ،

ولكن بينا كذلك قصر مدى سلطانه . إن ما يراود خيال رجل العمل هو أن يعثر على ما يؤمن فعل الغريزة فى أشد الحالات تعقيدا . وبعبارة أخرى ، فسيكون فن التفكير ، لرجل العمل ، هو فن تحويل التفكير إلى غريزة . ولا نريد أبدا أن نقول إن رجل العمل ينبغى أن يحقر العقل . فعليه أن يتأمل أولا فيما هو شارع فى عمله ، وأن يتخيل ، مثل بونابرت الشاب فى طولون المشاكل التى عليه أن يحلها يوما ، وأن يلاحظ عددا كبيرا من الحقائق ، وأن يستخرج القوانين من هذه الملاحظات . ولكن هذا التأمل ، وهذه الملاحظات ، وهذه القوانين يجب أن تنطبع فى شخصه . يجب أن يكون العقل لديه قد وصل إلى بواطن الأشياء و « أعمق الطبقات » ، وأن يعتاد الإمعان فى التفكير . فبهذا فقط يكتسب ، فى أحكامه هذه السرعة الفائقة التى تكاد تتطلبها الحوادث دائما .

ولننظر فى حال الطبيب المجرب (الاكلنيكى) ، فى اللحظة التى يأتيه فيها أحد المرضى . قد يطلب ، كزملائه ، أن يرى التحاليل ، ولا شك أن هذه التحاليل ستعينة فى استدلالاته ، ولكن هى الغريزة ، وليدة آلاف الحالات التى شاهدها ، التى ستملى عليه تشخيصه وإن دواعى قلقه أو اطمئنانه ، بشأن مريض ما ، كثيرة إلى حد أنه ليحار عادة فى التعبير عنها . وإنه سيبدو أقل علما بجانب ذلك الاستاذ الشاب الألمعى . ومع ذلك فهو « يعلم » ، وانه ليخطىء فى الواقع أقل قليلا من الآخرين .

والقائد العظيم ، فى ميدان القتال ، لا يقيم استدلالاته على قواعد وقوانين . . فمن ذكرياته التاريخية ، ومن تجاربه السابقة ، ومما يصل اليه من معلومات ،

يبزغ الحل ، وفى « شمبانيا » أعاد « بيتان » فعلة « ولنيجتون » . والكاتب الكبير ، يقف أمام نص من النصوص فيمحو جملة ، ويرفع صفة ، وينقل فعلا . فاذا نحن جهدنا فى تفسير كيف حسن هذا التنقيح فى القطعة ، فاننا سننتهى ولا شك إلى أدراك ذلك . ولكنه هو لم يكن فى حاجة إلى التفسير . فاسلوب فحول الأدباء الذى درسه من زمن ، قد وهبه غريزة اللغة . « فالمهم ، كما يقول « فاليرى » ( Valéry ) ليس هو أن نجد ، وأنما أن نضيف إلى ما نجد » . فمعارفنا لا تخصنا إلا إذا تمثلت من نفسها ، فى اللحظة التى تحصل فيها ، فى العقل دون ما قياس ولا برهان يفتقر اليهما الزمان .

فالعالم الصغير أو العالم الداخلى يتضمن ، عند الرجل العملى العظيم ، صورة متقنة لأجزاء العالم الخارجى التى عليه أن يعمل فيها . فالسياسى الحق يحمل بلده فى نفسه . إنه يعلم ، أفضل من ولاته ، استجابات وانفعالات الشعب التلقائية فى حالة معينة . ولاكتساب هذه المعرفة الكاملة للشعب يجب عليه أن يتفكر ، ويلاحظ ، ويقرأ ، وأن يعتاد معاشرة المواطنين من كل الطبقات . والآن وقد اكتسبها ، فانه سيعبر عنها بأحكام سريعة صائبة . . أما السياسى المفتقر إلى هذه الدلالات فانه يستشير الاحصائيات والصحف والهيئات ، ويحصل على معلومات قيمة ؛ ومع ذلك فانه سيتبين ثباتا لا مثيل له فى الخطأ . ذلك لأن جمع المعلومات ليس هو الثقافة . ففى عقل الرجل المثقف تنتظم الحقائق الجزئية لتكون عالماً حياً ، هو صورة من العالم الواقعى . فرجل الاحصائيات يقطع أوصال العالم ويميته ؛ والشاعر يخلق نموذجا لعالم يبث فيه الحياة . والرجل العملى العظيم أقرب بكثير للشاعر منه لرجل المعاجم .

والفكر ، عند الرجل العملي ، يختلط بالعمل ، كما يختلط عند الشاعر بالصورة . وقد نفهم الآن المعنى العميق لبعض الكلمات المشهورة : « الانسان يقدر أكثر مما يعلم » « يجب الاعتقاد قبل العلم » .. فيجب أن تعتقد قبل أن تعلم لأنه يجب العمل قبل العلم . ففن التفكير هو أيضا فن الاعتقاد لأنه لا يمكن لانسان ما ، بعد آلاف السنين من الحضارة ، أن يناقش كل العقائد الفردية والاجتماعية ، ويخضعها للإدراك الخالص . فإهمال الآراء القديمة والتعاليم السابقة هو نوع من التسلية العقلية ، ولكن لايستطيع المرء مزاولتها إلا فى وقت الفراغ . فينبغى على الإنسان ، ليعمل ويعيش ، أن يرضى بقسم كبير من القواعد الخلقية والاجتماعية والدينية التى اعترفت بضرورتها الانسانية من قبل .

فأفكارنا طباق بعضها فوق بعض ، الطبقة الأولى مكونة من عقائد البشرية البدائية ، والتالية من الأديان الآسيوية واليونانية والرومانية والمصرية ، ثم أغزرها من الآراء المسيحية وأهزلها من الأفكار الحديثة عن تركيب العالم . فكل هذا يقيم كياننا ، كل هذا قد انطبع فى أعمالنا الفنية ، وفى آثارنا ، وفى مراسمنا ، وفى أفكارنا .. فليس الانسان بقادر على أن يتخلص من ماضى البشرية أكثر مما هو قادر على أن يتحرر من جسده الخاص . فالفكر الرصين هو ذلك الذى غارت آساسه حتى أعمق طبقات الغريزة ، وسمت مع هذا قممه وقبابه إلى أن بلغت مراتب العقل المضيئة اللامعة . وهو يقبل قوانين المنطق التى هى قوانينه الخاصة . وهو يلحظ ، كلما استطاع الملاحظة ، قواعد البحث العلمى التى تبرهن على أثرها وفضلها بفوزها . وهو يعتمد على التقاليد الانسانية

الخالدة فى كل منا . وهو يسعى إلى أوثق حقائقه ويجدها فى الفن وفى الدين . وأخيرا فهو يفكر مع الجسم ، وبهذا يصبح فعله عملا وشعرا .

وإذا كان لى أن أشرح فى بضع كلمات العلاقة بين التفكير النظرى والتفكير العملى ، فأظن أنى سأستعين بالصورة التالية : فى المعركة الحربية ، يجب أن يتعاون سلاح الطيران مع جماعة المشاة . فتجتاز الطيارات خطوط العدو ، فتشاهد ، وتستكشف ، وتضع الفروض المحتملة على تحصينات الخصم . وعليها أن تبين للمشاة الاتجاهات التى يبدو من الممكن التقدم فيها . ولكنها لا تستطيع احتلال البقاع . وهى أيضا ، فى وصفها لها ، ترتكب ولابد أخطاء فاحشة ستكشف عنها المشاة ، وتعانى الكثير من جرائها ، أثناء تقدمها الشاق . وجماعة المشاة لا يمكنها أن تعلو الحواجز والموانع ، فينبغى عليها أن تبيدها أو أن تتخطاها . ويبدو لها بعضها ، برؤيته عن قرب ، أشد خطرا بكثير مما اعتقدت قوة الطيران من مرصدها السماوى . ومنذ أن تستولى جماعة المشاة على المكان وتثبت أقدامها فيه ، يصبح دور الطيران ، لا أن يتابع تقدمه عبثا ، ولكن أن يكون على اتصال بالمحاربين ، وأن يتعرف أخطاءهم وأن يحاط خبرا بحاجاتهم ومن ثم يؤوب مزودا بالمعرفة ، وبهذا يمكن فى النهاية للتعاون المستمر بين المحارب على الأرض والملاحظ من الجو أن يأتى بالنصر .

وهكذا الفكر الحق ، يمكنه ويجب عليه أن يحلق فوق بقاع معادية كذلك ، زيادة على الأراضى التى سبق أن احتلتها العادة والملاحظة . . إنه ، بتفسيره الرموز بوساطة الفروض ، يصف ما اعتقد أنه رآه . ثم يأتى العمل

فيجاهد فى احتلال الأرض مستعينا بالخطط التى يقدمها الفكر . فيوفق فى بعض الأحيان ، ويرد فى أغلب الأحيان . فيلزم حينئذ أن يتعرف العقل خطأه ، وأن يتصل ثانية بالواقع ، ويفترض فروضا جديدة ، بعد أن يعدل عن الأوهام التى بددتها التجربة . فالتعاون الدائم بين الاستدلال والتجربة والعمل يمكنه وحده أن يمنحنا ، لا النصر الأبدى الذى ليس من طبيعة الأشياء ، ولكن فترة من الراحة والتوقف السعيد فى فيء ملاذ من تلك الملاذات التى نسميها حضارات .

لقد تساءلنا فى البداية : أمن الممكن أن نرسم فى ذهننا مصورا صادقا للعالم ، وأن نبحر طبقا لهذا المصور نحو غايات معينة ، وأن نصل إلى المرفأ المختار ؟ يخيل لى أن جوابنا على ذلك سيكون الآتى : إن الفكر الانسانى لا يقدر أن يرسم مصورا دقيقا للعالم جميعا . إنه لا يستطيع أن يجعل غايته الشواطىء النائية الخرافية لمملكة « ايثيوبيا » ( المدينة الفاضلة ) ، ولكنه يستطيع ، مثل الملاحين القدماء ، باستخدام المعارف التى حصلها السلف ، عن بروج الكواكب الثابتة وعن العواصف الهوجاء ، وباتمام هذه الحكمة السلفية بالتجربة ، وبملاحظة النجوم ، والمد والجزر والرياح ، يستطيع أن يخلص بشجاعة من غرق إلى غرق ، ويمرق من مجموعة جزر إلى غيرها . . وحسبه هذا ، « فأوذيسيوس » الفطن الحكيم لم يطلب من الآلهة أكثر من ذلك .

# ٢
# فن الحب

« الفن ، كما يقول بيكون ، هو الإنسان مضافاً إلى الطبيعة . . Ars Est Homo Additus Naturae » . أى مايضيفه الإنسان إلى الطبيعة ، فالطبيعة تقدم دون تهذيب أو صقل عناصر الصورة ، أو التمثال ، أو الشعر ، أو المأساة التمثيلية ؛ فيصوغ الإنسان هذه العناصر وينظمها لتشبع مطالب نفسه . وباقرار هذا التعريف ، البارع ، يكون من الجلى أن يوجد فن للحب . إذ أن الطبيعة ، فى الحب كما فى كل شيء آخر ، لا تقدم إلا العناصر الأولية غير المصقولة : تقسيم الكائنات إلى جنسين ، وحاجة الجنس إلى التوالد والغرائز القوية التى وضعت لخدمة هذه الحاجة . ولكن إذا لم تكن النفس البشرية ، على مر العصور ، قد نظمت وشكلت هذه العناصر ، لما كان حبنا إلا حبا كلبيا وضيعا . فلتنظر إلى حب الحيوانات ، فى الحقول ، وفى الجو ، وفى الأنهار ، ثم فلتقرأ قصة « البرنسيس دوكليف » [١] أو « مقالات عن عاطفة الحب » [٢] ، فتقدر كل ما يفرق ، فى الحب ، بين الفن والطبيعة .

والعجاب فى الحب البشرى ، هو أنه يشيد صروح أعقد المشاعر وأدقها ، على غريزة من أبسط الغرائز ، هى الشهوة . فبهذه العمليات السحرية ، يجد كائنان فانيان شقيان ، ضعيفان شأننا جميعا ، أنانيان شأن طبيعة الأحياء ، حيان ، متقلبان ، وحشيا الخلق ، يجدا نفسيهما متحدين فى أوثق وأعذب رابطة ، فهما لا يباليان العالم وعداوته ، ولا يعبآن بالمستقبل ومخاوفه ، ولا يهتمان بتفاوت الطبقات واختلاف المواطنين ، فكل هذا ، سرعان مايزول من نظر المحبين ويصبح فجأة هباء وأوهاما . إن قوة الشهوة تتيح لهما التخاص

---

(١) Princesse de Clèves

(٢) Discours Sur Les Passions de L 'Amour

من الأثرة وتعينهما على احتمال الآخرين كما هم . ولكن الشهوة زائلة مولية . فكيف تسنى للناس أن يستخلصوا ، من غريزة حمقاء هوجاء ، عواطف ثابتة نقية ؟ إن مسألة « تطهير الشهوة » هذه هى التى يجب علينا حلها إذا أردنا أن نفهم فن الحب .

وقبل أن نقتحم هذا المعقل الرئيسى ، علينا أن نعبد الطرق المؤدية اليه .

## ١ — إختيار الحبيب

لم نختار من بين آلاف الرجال والنساء الذين نقابلهم ، شخصا ما دون سواه لنجعل منه محورا لأفكارنا ؟ يمكننا هنا أن نأخذ بنظريتين ، تتضمن كل منهما نصيبا من الحقيقة .

الأولى ، هى أننا فى أدوار من حياتنا ، وعلى الخصوص فى سن المراهقة ، ثم فى وقت الشباب ، نكون مهيئين للحب . وتوحى إلينا شهوة غامضة ، عامة ، بما ينتظرنا من عواطف لذيذة . ذلك هو الوقت الذى يولع فيه الشاب ، لافتقاده امرأة حقيقية ، « بالحوريات » اللاتى يلهبن خياله ، الوقت الذى تهيم فيه الفتيات بأبطال الرومان ، وبمشاهير الفنانين ، أو بأساتذتهن فى الآداب . فالشباب هو أقوى الأشربة إشعالا للعواطف « فبهذا الشراب — كما يقول « جيته » — تجد « هيلانه »[1] فى كل امرأة » .. فعندما يترقب الجسد قلقا وصول المحبوب المرتقب ، يكون لأول عابر ، جدير بأن يحب ، الفرصة فى إيقاظ الحب . وأحيانا تحسن الصدفة فيسفر التلاقى عن إلفين سعيدين ، وأحيانا

---

(١) أميرة أغريقية ؛ اشتهرت بجمالها الرائع ، إبنة ليدا ، وزوجة منيلاس

الأخرى يكشف الرجل والمرأة، حين تجمعهما الرغبة عن دواعى التنافر بينهما والازدراء، فيتولد عن الحب بغض وكراهية.

ويمكن أيضا إدراك الاختيار الراجع الى ظروف المقابلة. فيحدث أن أشخاصا حيبين خجولين، لم يكونوا ليجرؤا فى حياتهم العادية على الإفصاح عن عواطفهم ورغباتهم، يجدون أنفسهم وقد قرب بين قلوبهم ود متين. ولقد حولت سجون الثورة الفرنسية نساء عديدات، كن فى وقت أكثر هدوءا واطمئنانا، زوجات طيبات مسالمات، إلى عاشقات عظيمات. كما أن مجد الرجل وعظمته يغمانه فى نظر المرأة بغمامة مضيئة تحجب عنها معايبه. إن لحظات الظفر تعين على بزوغ الحب.. وأحيانا تخلق الصدفة توافقا خادعا بين الروح أو القلب. ورب عبارة تقال، فتتقابل فجأة نظرتان وترتدان عن استجابتين متماثلتين. ولهزة عربة تتلامس يدان وتجدان لذة فى البقاء متحدتين مدة ثانية أكثر مما تتطلبه قوانين سقوط الأجسام. وحسبنا هذا.

والنظرية الأخرى، هى أن الحب لأول نظرة (أو كما يسميه الفرنسيون « Coup de Foudre ») ، هو علامة على قدر قديم. فقد شاءت أسطورة يونانية أن تجعل كل إنسان، عند نشأة العالم، مكونا من رجل وإمرأة معا، وأن الصانع (الخالق) قد شطر كل فرد من البشر شطرين، ومنذ ذلك الحين وكل من الأنصاف المنفصلة يسعى إلى الاتحاد بنصفه الآخر. فحين يتقابل عنصرى زوج من هذه الأزواج المقدرة من الأزل، فانهما ينبآن من ذويهما برجفة عنيفة ولذيذة هى رجفة النظرة الأولى « الصاعقة ». فكل منا يحمل فى ذاته « النسخة الأصلية للجمال الذى يبحث فى العالم العظيم عن صورته » فإذا عثر على كائن حقيقى حاصل على الكمالات التى كانت تتحلى بها «حوريات»

شبابه ، إستسلم إلى الوله والافتتان . وهناك أشخاص يجلبون لنا فى وقت واحد البهجة لحسنا بجمالهم ، والإرضاء التام لعقلنا برقة حديثهم . وهؤلاء نحبهم دون عناء ولا ندم . وكل دقيقة نقضيها بقربهم تجعلنا أكثر يقينا بكمالهم . وإنا لنعلم أننا لو منحنا القدرة على تغييرهم لما رغبنا فى تغيير شىء فيهم . فرنة صوتهم تبدو لنا « أعذب النغم » ، وأسلوبهم العادى أروع ما نظم من شعر . إنها لسعادة عظيمة أن نعجب بشخص إعجابا كاملا . والحب القائم على الإعجاب بروح المحبوب وجسده معا يسبب ولا شك أقوى اللذات .

ويوجد أخيرا كثير من الرجال والنساء الذين لم تفرض عليهم الصدفة ولا العاطفة الجارفة ، رفيق الحياة ، والذين لجأوا إلى الاختيار بترو . . فهل لهؤلاء من فن للحب يرسم لهم بعض القواعد العامة لتهديهم فى اختيارهم ؟ يمكن القول إن رقة المزاج ، والصبر ، وبالأخص روح المرح هى فضائل تعين كثيرا على سعادة الإلفين ، وإنها لتنشأ فى الأغلب (ولكن ليس دائما) عن الصحة السليمة . فينبغى أن ندقق الملاحظة فى أسرة من يقع عليه أو عليها إختيارنا ، فالسعادة تجلب السعادة . وهناك أوساط كئيبة مكبوتة سرعان ما تذبل فيها زهرة الحب .

ويبدو كذلك أنه من اليسير جدا أن تسعد امرأة مع رجل ينطوى على حيوية ورجولة ، وأن يسعد رجل مع امرأة رقيقة وديعة ترضى بأن تسلس له قيادها . والفتيات الصغيرات الغريرات يزعمن أنهن يوددن أن يتزوجن من زوج يستطعن السيطرة عليه . أما الرأى عندى : فإننى لم أتحقق أبدا من امرأة قد أحست سعادة حقة مع رجل لم تحترمه لقوته أو لمروءته ، ولا من

أن رجلا سويا طبيعيا كان سعيدا حقا مع امرأة مسترجلة . غير أن كل هذا ليس يخلو من التعقيد ، فإن لأكثر النساء عبودية غريزة للمحافظة على الذات يرضيها أن تجد أحيانا فى بطلها طفلا .

وفى الواقع إن دور الصدفة من الندرة بحيث يمكن للرجل والمرأة حقا أن يختارا ، بفعل إرادى بحت ، ذلك الذى سيكون لهما رفيق الحياة . ومن الأنفع لو ترك الأمر للغريزة : فالغريزة ، على الرغم من كل أخطائها ، أكثر أمنا من العقل . « يتساءلون عما إذا كان لابد للمرء من أن يحب . وهذا أمر لاينبغى أن يسأل عنه ، بل على المرء أن يحسه . » فميلاد الحب ، ككل ميلاد ، هو من عمل الطبيعة ، أما دور فن الحب فيأتى متأخراً . وعلينا الآن أن نعين بدقة تامة اللحظة التى يبدأ فيها الفنان فى صقل العاطفة الجافة .

## ٢ — نشأة الحب

وصف « ستندال » ( Stendhal ) نشأة هذه العاطفة وصفا حقيقا بالإعجاب فى كتابه « عن الحب » ( De l' Amour ) . فعلينا أن نحتفظ بالخطوط الأساسية لوصفه ، ولكن على أن نضيف إليها ما يمكننا ملاحظته على أنفسنا وعلى الآخرين . . .

أولا — فى منشأ كل حب توجد « هزة » ( Un Choc ) ، إما ناجمة عن الإعجاب ، وإما عن حادثة توحى توافقا أو تولد رغبة . . . لقد نزل « رونسكى » من القطار وهو يتمتم حالما : « إن السيدة كارنين هذه رائعة الجمال . . ماذا كانت تعنى تلك النظرة ؟ » وقد مر « شارل جرانديه » بحياة إبنة عمه

فى ليلة كانت له فيها فتنة الألم الخيالية . فأحبته بعدها طوال حياتها .

ثانياً — إذا ماوجهت الهزة الاهتمام نحو شخص ، فإن « البعاد » يصبح عونا قويا على نشأة الحب . و « إن أعظم قوة للنساء — كما قال ( ألن ) — أن يجئن متأخرات وأن يكن غائبات » . ذلك بأن الوجود بقرب الحبيبة سرعان ما يكشف عن ضعف تلك التى رمتنا فأصمتنا . أما فى البعاد ، فعلى العكس من ذلك ، تصبح المعشوقة حورية يمكننا أن نضفى عليها كل مايزينها من كمال . وهذا العمل هو مايسميه ستندال « التبلور » ( La cristallisation. ).

وبالتبلور يتبدل المحبوب شخصا مغايرا لما هو عليه ، وإسمى مما هو عليه . وهذا هو ما دعا « بروس » ( Proust ) إلى القول بأن الحب أمر ذاتى وأننا نحب ، لا أشخاصا موجودين فى الواقع ، بل أشخاصا نخلقهم نحن خلقا . ولا يصح هذا القول فى حالة إعجاب حق صائب . فلا تبلور للماس الطبيعى . ولكن قليل هو الماس البرىء من العيب .

ثالثا — إذا ما تم التبلور الأول ، فيمكن لمقابلة ثانية أن تحدث دون خطر على الحب ، لأن انفعالنا سيكون إلى حد أننا لن نرى بعد « الشخص الحقيق » حتى عند ما يكون ماثلا أمامنا . أننا سنستبدل به ذلك الذى صنعه التبلور . إننا لن نسمع العبارات المبتذلة التى سيقولها ، ولن نلحظ سخف عقله وضعف قلبه . وإن الغبطة التى تعترينا لرؤيته لفى حمى من المفاجأة لأنها غبطة باطنية .

رابعا — مادامت الأمور مستقرة على هذه الحال ، فلا يهب الحب إلا

السعادة ، ولكن لا يمكن لموقد أن يشتعل دون وقود . وهذه الشعلة الوليدة ستخمد جذوتها سريعاً إذا لم تذكها نسمة ، مهما لطفت ، من الأمل . أما عن آيات التشجيع وأمارات التحريض فإن المحب لا يتشدد كثيراً . إذ سرعان ماتؤثر فيه نظرة عين أو ضغطة يد أو جواب فيه شيء من الحرارة .

خامسا — عندما تستبين هذه الأمارات وتدوم ، يمكن أن يتولد عنها حب متبادل لاشيء أجمل وأحلى منه . ولكن يحدث كذلك أن اليقين والتأمين يميتان العاطفة . فعند كثير من الرجال والنساء يتغذى الهوى ، فى مستهله ، على الشك أو بالأحرى على تغير علامات التشجيع وعلى الفتور . وفى الأغلب لا يتفق هذا التغاير فى الأمارات مع أى تغيير حقيقى فى الهوى والميل . فالخجل والحياء يمليان حركات نعتقد نحن أنها من إملاء النفور والتحقير . وإنا لنتخذ من صداع بالرأس أو ضيق من نطاق أسيء شده أو جورب انحلت عراه ، دليلا نفسره بهذا التدقيق السخيف الذى لا يوافق إلا المحبين ورجال ( البوليس ) . ولكن المحب يكفى أن يقلقه ويهمه « لاشيء » . فهو يحلل النظرات ، والألفاظ ، والإشارات . إنه يكشف فيها معانى خبيثة . وهو يسعى فى أن يعرف أية خطيئة اجترحها فاستحق من أجلها المعاملة القاسية . وكلما فهم القليل ( إذ ليس هناك شيء ما ليفهمه ) ، زاد تفكيره فى تلك التى يهواها وزاد الحب غوراً فى أعماق نفسه . فالحب الناشيء عن القلق يشبه تلك الأشواك التى لها من تكوينها ما يجعل ذلك الذى يجاهد فى انتزاعها يزيدها ، بمحاولته ، نفاذاً فى بدنه .

سادسا — وينتج عن هذا على ما يبدو ، أن «الدلال» ، أى اللهو بتعمد التبدل

والتقلب ، اللهو القائم على تقديم الطعم ، ثم جذبه ، ثم تقديمه ثانية ، يبدو أنه مفيد لإيقاظ الحب وصونه . وكالقط الصغير تغريه كرة الخيط الصوفية فما يبرح يجاهد ويثب عليها فينالها ثم تمتنع عليه ، كذلك الشاب الفريسة ماينفك ينساق إلى إغراء وإغواء الغانية المدلة . إنها نزعة طبيعية سهلة التفسير أن تقبل على مايرفض ،وأن تصد عما يقدم .

سابعا — ولكن الإمعان فى الدلال يميت الحب . فإن « مدام ريكامييه » ( Mme. Récamier ) الغانية اللعوب المشهورة التى لم تقهر لأمد طويل، عقدت العزم على كسب حب «بنيامين كنستانت» وقد نجحت فى ذلك حقا .. لقد قالت له : « أقدم » ، وسرعان ما أحال الأمل هذا الرجل العرم طفلا . « إنها لاتحبنى . ولكننى أدخل السرور على قلبها » . . هكذا راح يفكر . ومنذ أن كشف عن لهوها ، أمضه الألم : « إنى لم أعرف غانية أبداً من قبل . أية داهية ! » . وبعد ذلك بقليل : « يا إلهى ! كم أمقتها ! » وعند ذاك زال التبلور : « يمينا . لقد تخليت عنها . إنها جعلتنى أقضى يوما شيطانيا . إنها عصفور غرد طائر ، إنها سحابة عابرة لاذاكرة لها ، ولا تقدير ولا تفضيل » . . وإذن يمكن للغانية أن تنأى بعيداً . ولقد هجرت « سليمين » [1] فى الفصل الخامس ، من كل أولئك الذين فتنتهم من قبل بروحها وجمالها .

ثامنا — لو فعلت الغانية كما يفعل الطبيب حين يجعل مريضه الذى تجرى

---

(١) ( Célimène ) شخصية مسرحية فى تمثيلية ( Le Misanthrope ) لموليير ، مثال للمرأة الشابة المليحة اللعوب المستهترة .

له جراحة تتبادل رئتاه الغاز الخانق والأكسيجين ، فزجت ذات الدلال قسوتها بالأمل كيلا تقتل عليها المضنى ، لما أمكن مقاومة هذه اللعبة القاسية. ولكن أيلزم لعبها ؟ أعتقد أن الأفاضل من بين الرجال والنساء يأبون ، عن حب أحيانا ، وعن خير أحيانا أخرى ، الفوائد الأكيدة تقريبا التى تعود عليهم من الدلال والتيه . إنه لمن السمو أن تقول : « إنى لأعلم أنى باعترافى لك بحبى أسلمك قيادى وأضع نفسى تحت رحمتك ، ولكن إنه ليسرنى أن أفعل ذلك » . فإذا كان الشريك غير أهل لهذه الثقة وجب إذن مده من وقت لآخر بجرعات ماثلة من الدلال . وإذا كان الشريك قمين بالتسليم المطلق أمكن أن يتولد حب جميل متبادل مأمون .

تاسعا — إن الأيام الأولى « للغرام المتبادل » هى ألذ وأحلى ما يمكن أن يدركه الإنسان . فالتبلور عندئذ يكون مزدوجا ويقاوم وجود المحبين ويحتمل لقاءهما . فكلاهما يسمو على ذاته ويصبح مايريده الآخر أن يكون . وعند ما يمكن لهذه الحال أن تدوم تصبح الحياة أجمل حياة .

ولكن من النادر أيضا فى مثل هذا الحب أن تكون قوة العاطفة متساوية عند الطرفين ، أو أن تبقى متساوية لو أنها كانت كذلك . وينبغى على أكثرنا أن يغزوا ، ويغزوا دون انقطاع قلب الشخص الذى يرغبونه والذى لا يتقدم إليهم من غير نضال .

## ٣ — كسب الحب

أيمكن للإنسان أن يجعل نفسه محبوبا ؟ وقبل ذلك ، أمن الضرورى أن

يكون محبوبا؟ أليس من الأيسر ، إذا لم يستجب الحب للحب ، أن نقتضيه على الأقل اللذة ؟ لقد كان الحال كذلك فى الحضارات البدائية أو التقاليد العتيقة ، حيث كان الرجل يختطف المرأة التى يرغب فيها ، فلا يلبث أن يتألف منهما زوجان اثنان، وتصبح الأسيرة تحت رحمة المحارب المغامر. ويحدث فى الأغلب أن تقع فى حبه ، لأنه اصطفاها لنفسه ، ولأنه سيدها ، أو لأنه ببساطة جدير بأن يحب . . وفى أزمنة أخرى لحب النفوذ والمال الدور الذى لعبته القوة من قبل . . والثروة تكسب الحب أقل يسراً من الشجاعة ، لأنها ليست صفة فى المحبوب ذاته . ومع ذلك فان «جوبتير» قد نفذ إلى مكان « دنايا »[1] متخفيا فى صورة مطر من ذهب .

ولا يمنح حب السبايا هذا ذوى النفوس الطموحة إلا القليل من السعادة ، فنحن لا نرغب فى أن نرضخ ، ولكن فى أن نصطفى . والظفر لن يجلب لنا السرور الدائم إلا إذا كان ظفراً على إرادة حرة . فعندئذ فقط يمكن أن تتولد هذه الشكوك وهذا القلق ، وهذه الانتصارات المتجددة دائما على التعود والسأم . فتلك جميعا هى مصدر أعذب المشاعر . والإماء رائعات الجمال لا يعشقن من أجل أنهن أسيرات سجينات .

وكذلك العكس ، فإن جميلات الشواطىء الأمريكية قلما يحببن لأنهن

---

(١) Danaé : ابنة أكريسيوس ، ملك أرجوس ، وأم برسيه من جوبيتير إله الآلهة . وقد أسرها أبوها فى برج من النحاس فدخل عليها جوبتير فى هيئة مطر من الذهب . (من أساطير اليونان)

متحررات طليقات . فأين نصرك ، أيها الحب ، حين لاشيء ( حجاب ، عفة ، أخلاق ) يعترض تقدمك ؟ إن المغالاة فى الحرية تقيم حول أسراب النساء المتساهلات جداراً شفافا « لحريم » خفى . ويؤمل الحب الخيالى فى أن تحيا المرأة ، دون أن تكون منيعة بعيدة المنال ، حياة تحصرها حدود قد ضيقها الدين والعادة . إنها هذه الظروف ، وقد توافرت توافراً عجيبا فى العصور الوسطى ، هى التى خلقت غرام القصور اللطيف الرقيق . فاستقرت المرأة فى القصر المنيف ، سيدة مكرمة ، وارتحل الرجل مجاهداً فى الحروب الصليبية . وراح وهو يقطع الأرض ومسالكها ، يتفكر فى عشيقته . وعلى خطوات الجياد أخذ التاريخ يسير سيراً حثيثاً . بينما هناك فى الوطن ، أججت سيدة القصر ، القريبة البعيدة معا ، عند تابعها الفتى المقيم بالقرب منها ، عاطفة صارت فيما بعد ، وقد شوهتها الثورة الفرنسية ، عاطفة « جوليان سوريل » نحو « مدام دورينال » . فالمربى الفاضل من ذرية التابع النبيل . وبين الإثنين : « شاروبان »[1] الوصيف الذى كان من قبل يقظا متحفزاً ، يعوزه الخوف .

وفى العصر الذى ساد فيه عشق القصور الناعم ، قليلا ماسعى العاشق فى كسب المحبة . إنه يرضى بأن يحب فى صمت أو على الأقل بغير أمل . كما كان الأمر حقيقة بين « مسيو دونيمور » و « البرنسيس دوكليف » . ويرى

---

(١) شخصية فى تمثيلية بومارشيه الهزلية « زواج فيجارو » ( ١٧٨٤ ) التى يقوم فيها فيجارو بدور الوصيف للنبيل المتغطرس بالمافيفا الذى خدعه واستغفله وصيفه الحاذق الماهر .

البعض أن هذه العواطف البريئة خيالية ساذجة . ولكن الإعجاب عن بعد يعطى النفس الرقيقة المرهفة لذات قوية يبدو أنها ، من حيث هى ذاتية كلها ، فى أمان من الانخداع وخيبة الأمل أكثر من اللذات الأخرى . « إن اللذة فى أن تحب دون أن تبوح بحبك لها منغصاتها ، ولكن لها أيضا حلاوتها . فى أى شغف يروح الإنسان يشكل جميع أفعاله كيما تروق وتسر ذلك الذى يعزه الإعزاز كله ؟ ولا يألو المرء جهداً كل يوم فى البحث عن الوسائل التى يكشف بها عن نفسه . وإنه ليستخدمها بالقدر الذى ينبغى عليه أن يحتفظ بتلك التى شغفه حبها . وتضىء العيون وتخمد فى وقت واحد ؛ ومع أن المرء لايرى جهرة أن تلك التى سببت كل هذا الاضطراب قد تنبهت وتيقظت له وشعرت به ، إلا أنه راض بأن يعانى كل هذه البلبلة من أجل شخص له ميزته وفضله » .

وإذا أحب فتى حدث ممثلة لم يرها إلا على خشبة المسرح ، فإنه يسبغ عليها كل ما يزينها من الكمالات الروحية التى ينطق بها صوتها ووجهها ولا تملك منها ولا شك شيئا . وذلك لأنه إنما عرفها فى دور من نسج خيال « ماريفو » أو « ميسيه » فهو يعيرها ما لهؤلاء النسوة اللاتى تمثلهن من فتنة شاعرية خيالية . ولأنه لم يتأمل فيها إلا تحت أنوار المسرح وأضوائه المغرية الخلابة ، فهو يجهل غضون وجهها وحقيقة عمرها . ولأنه لم يشاركها أبداً حياتها ، فهو لايعلم شيئا عن نزقها وغرورها . . وكما يقول « بايرون » : « إنه لأهون على الإنسان أن يموت من أجل المرأة التى يحبها ، من أن يعيش معها » . . والمعجبة بالكاتب الروائى تغدق عليه بسخاء رقة أبطاله . فهى

لاتحدس صريرمفاصله ، وآلام سوءهضمه ، وتهويمه ونعاسه ، وحمقه وسرعة إنفعاله . إنه لمن اليسير أن نعجب بامرىء عند ما يبقى بعيد المنال .

أيجب إذن ، لكى ننقذ الحب ، أن نعدل عن إظهار حبنا ؟ لا ، إن الحب الدفين فى النفس المكنون فى الفكر ، مهما كان جميلا فى أيامه الأولى ، لا يمكن أن يدوم . ولكن ، كلما كان الطريق طويلا فى الحب ، كلما قوى إحساس النفس المرهفة باللذة ، نعم ، ولكن أيلزم أيضا أن يؤدى هذا الطريق ، بعد عدة منعرجات لطيفة ، إلى الغاية ولا يضل فى بقعة قاحلة مجدبة ؟ فينتهى الحب بأن يوسن وبأن يخر صريعا وهو يتضور جوعا » . إن الافتقار إلى العون والمورد قريب ينقص الامتلاء »[1] . وعاجلا أو آجلا تتولد عند المحب الرغبة الجبارة فى أن يحب .

ماذا يمكن إذن أن يعلمنا إياه فن الحب ؟ . أيعلمنا طرق تركيب شراب العشق ، وعمل التمائم والعزائم للمحبة ؟ إن قصائد الشعر القديمة ، وقصص الجنيات مليئة بالعرافات الساحرات . ونحن نعلم أنه فى أيامنا هذه كما فى أيام « ثيوكريت »[2] أو « أوفيد »[3] ؛ وفى مواخير باريس ولندن ونيويورك العديدة القذرة ، وأمام عجوز كريهة رهيبة ، تدوى تلك الصيحة

---

(١) يعنى أن احتياج المحب إلى إرضاء حبه بينما المحبوب بجانبه يقلل من العاطفة المضطرمة التى تمتلىء بها جوانحه .

(٢) (Théocrite) شاعر يونانى ولد فى سيراكوز حوالى ٣١٠ ق . م .

(٣) (Ovide) شاعر لاتينى ولد فى سولمونا حوالى ٤٣ ق . م

القديمة مئات المرات فى اليوم : « ولكن ماذا يجب إذن أن أفعله ليحبنى ؟ » . وتجيب خبرة البشرية القديمة كذلك على هذه الصيحة، كما تجيب على جميع الصيحات ، بالطقوس والشعائر .

## ٤ — التودد

وجملة الشعائر والتدابير والحيل التى يتذرع بها المحبون ليستهوى بعضهم بعضا تسمى « التودد » . والحيوان ، كالبشر ، له فى موسم الحب ، طريقته فى التودد . ولنذكر بعض الوسائل الشائعة للإغواء ، مبتدئين من أدناها التى تشترك فيها الأجناس جميعا ، منتهين بأشرفها ، الخاصة بالإنسان .

ا — الزينة : إن غرض الزينة والحلى هو جذب الإهتمام والإنتباه نحو ذلك أو تلك التى تتزين بها . فكالأزهار ، تدعو فى زمن التلقيح ، ببريق ألوانها الزاهية ، الحشرة التى ستهبها حبوب اللقاح اللازمة . وكبعض أنواع الذباب والديدان المضيئة إذ تعلن بنى جنسها ، بوميضها فى ظلمة الليل حبا موهوبا ، كذلك النساء ، يعرضن أنفسهن لاختيار الرجال بأناقة ثيابهن أو خلاعتها . ومن حق الفتاة ومن واجبها أن ترضى الناظرين وتنال الإعجاب ، وكل النساء ، أو جلهن ، يجاهدن فى هذا السبيل . وتعول العذارى الغريرات الرعناوات على خلاعة ,, التفصيل ،، بينما العاقلات الراشدات منهن يعولن على ما للتستر والغموض من جاذبية أدوم وأبقى . وتتبع غالبيتهن الزى المستحدث ( الموضة ) الذى لامأرب له إلا إثارة إنتباه الجنس الآخر . فالخائطات ومبتكرو الأزياء وبائعو الحلى والجواهر إنما يعيشون على هذه الحاجة الدائمة للخداع .

وتخرج بعض النسوة على قوانين الزى السائد ، إما تصنعا وإدعاء أو عن إزدراء جدى ، ولكن فى مجتمع ما حيث الجميع ، من العاملة البسيطة إلى « الدوقة » العظيمة ، يخضعن لنسق واحد فى وقت واحد ؛ يكون من الغريب المغرى أن تخرج امرأة على تناسق المجموعة ، فأ كثرهن بساطة هى إذن أقلهن بساطة ، وأقلهن دلالا هى أكثرهن دلالا ، ويصبح الخلو من الحلى والتزين ، تحلياً وتزيناً . وفى العهد السابق للمذهب الرافاييلى كانت الفتيات الانجليزيات اللواتى يذهبن أيام الآحاد إلى بيت « وليام موريس »[1] لا يلبسن إلا ثيابا موحدة متشابهة من الصوف الرقيق الأزرق ، وقلائد من الكهرمان الأصفر . ولكنهن كن يتميزن بهذا من النساء الأخريات اللاتى بقين على إخلاصهن للحلى والجواهر الثقيلة ، وللثياب الضافية السابغة التى كانت سائدة فى نهاية عصر الملكة فيكتوريا . وقد يلجأ « البوهيمى » إلى الخداع والإغراء بلبادته الضخمة ، والكاتب الشاب بردائه المصنوع من الجلد ، كما كان يفعل من قبل المتأنق بمخمل صدريته . وعند كثير من أجناس الحيوان هو الذكر الذى يلجأ إلى التزين . فالطاووس فوز للطبيعة أى فوز على الفن . أما فى الجنس البشرى ، حيث يميل الذكر إلى الإفلات من المسئولية الإقتصادية للحياة الزوجية ، فعلى المرأة أن توقف عنايتها على تزينها . وهذا صحيح على الأقل فى فرنسا .

ب — البراعة الفنية : القيام بفعل شىء ، مهما يكن هذا الشىء ، أفضل

---

(١) شاعر ورسام وكاتب فنى انجليزى . ولد فى والثامستاو (١٨٣٨ — ١٨٩٦)

عما يقوم به الآخرون ، هو سبيل لنيل الرضا . وكل محب إنما يسعى إلى إبداء براعته . والموضوعات تتنوع تنوعا كبيراً . فبعض الطيور تغوص أمام حبها حتى قاع البركة وتعود ببعض الأعشاب المائية لتقدمه إليه فى إجلال وإكرام . « عم ستبحث فى الشرق ؟ — عن المجد كى أكون محبوبا » . هكذا أجاب « شاتوبريان » ومن غوصه فى البحر الأبيض عاد إلى « مدام دونواى » ( Madame de Noailles ) بعبارات خالدة باقية . وكثير من القصص ، كقصة ( Clou d' Or ) لسانت بيف ، قد كتبت من أجل امرأة معينة لتجد فيها تصويراً لعواطف صورت لتمس منها الشغاف وجميع الموسيقيين تقريبا إنما يبثون جوانحهم ويعبرون عن أمنياتهم فى ألحان منغمة . بينما لاعب التنس يحوز الإعجاب بإتقان ضرباته الشمالية العكسية ، وسائق السيارة بانحناءاته ، والراقصة برشاقة دوراتها .

وهذه البراعة الغرامية تؤيد الرجل بسحر خطير قد تقوى الفتيات العاقلات على مقاومته ، أما الحمقاوات منهن فلديهن شهوة قوية لانتزاع محب مشهور من إحدى المنافسات ، بل من إحدى الصديقات . إنها لعاطفة معقدة يتدخل فيها الغرور ، وتقدير ذوق النساء الأخريات ، والحاجة إلى توطيد الثقة بالذات بكسب ظفر عسير . لقد اختار « دون جوان » عشيقاته الأوليات ، ثم اختارته العشيقات فيما بعد . ويقول « بيرون » : « منذ حرب « تروادة » لم يرتفع إنسان مثل رفعتى » .

والحاجة إلى حياة آمنة ، وهى قوية عند النساء ، تربط الضعيفات منهن بالرجل الذى يبدو أنه ، بقوته أو بقدرته ، يكون لهن سنداً متينا .

فنى أوقات الحروب يحسبن المغانم والرؤوس التى يطيحها سيف المحارب الجرىء ، وفى زمن السلم يبحثن عن النبوغ والثراء . . . والهدايا والهبات بالنسبة للعاشق وسيلة لتوكيد قدرته . وطائر « البطريق » ( Pingouin ) والثرى الواسع الثراء يقدمان إلى خليلتيهما قطعا من الأحجار تتفاوت فى بريقهـا . ويهدى طير « الشرشور » ( Pinson ) إلى أنثاه من أوراق الشجر وأغصانه مثلمـا يهدى الشاب عروسه خيوطا من الصوف فى شكل سجادة أو ستارة . والمرأة كأنثى السنونو ، ما أن تختار لهـا ذكراً أليفا حتى تفكر فى العش .

جـ ــ الثنـاء : وهو نوع من العطاء . وكل قصيد الحب تقريبا إنما نظم فى المديح أو النسيب . وقد تؤثر شكوى الهوى فى فؤاد الحبيب ولـكنها تضجره سريعاً . أما المدح فإنه يرضيه ، وذلك لأن جميع الرجال والنساء تقريبا ، حتى أشدهم تكبرا وترفعا ، يعانون من « مركب النقص » . فالجميلة الفاتنة ترتاب فى خفة روحها ؛ والقوى المتين لايثق بحسنه وجاذبيته . وانه لبديع منك أن تكشف لشخص عن آلاف الخصال فيه التى تجعله محبوبا ويجهلها هو ، أو لايعنى بهـا . . وتنشرح بعض النسوة الحييات الحزينات وتتفتحن لحرارة الإعجاب كما تتفتح الأزهار للشمس . أما الرجال فلا حد لشهوتهم للمديح . فكم من النساء القبيحـات الخاليات من الرقة قد عشقن طول حياتهن لأنهن أجدن المديح والإطراء . ولتلاحظ أنك إنمـا ترضى الناس لا بالثناء على صفاتهم الظاهرة التى يعرفونها كما تعرفها أنت ، ولـكن بثنائك على تلك الصفات

التى يعتقدون أنها تنقصهم . فالقـــائد الحربى سيحمد لك بعض الحمد حديثك عن إنتصاراته . ولـكنه سيعترف لك بالفضل إلى الأبد إن أنت كشفت له عن بريق عينيه . . وسينصت الـكاتب الروائى المشهور بضيق وملل إلى الثناء على قصصه ، ولـكنه سيتألق فجأة إذا أنت حادثته بحماسة عن تلك المقالة الغامضة ( ولو أنها فشل له وإخفاق ) ، أو عن حرارة صوته .

د — التودد النسائى : للمرأة وسائلها الخاصة لغزو القلوب . ومنذ أمد بعيد وهى تدعى ادعاء قريا : إنها تنتظر تقدم الرجل : وليس هذا إلا فى الظاهر . « فالمرأة — كما يقول شو — تنتظر حقيقة الرجل ، ولـكن كما ينتظر العنكبوت الذبابة » . وكثيرات من النساء المسترجلات فى هذه الأيام يقاتلن بصدور مكشوفة من أجل الرجل . وكان الغرض من الرقص دائما أن يطامن من حياء الرجل ويسكن روعه بإكراهه على السيطرة على شهواته . والرقص الحديث يتجه مباشرة إلى اللذة الحسية أكثر من الرقص القديم أو الرقص الريفى ؛ إنه لايزال إحدى حيل الجنس القوية .

وأحد الأدوار الرئيسية للمرأة فى مدنيتنا الحديثه ، أحد الأدوار التى تساعدها أفضل المساعدة على أن تكون محبوبة ، هو قيامها بالوساطة بين الرجل والطبيعة . فكثير من الرجال الذين يحبسون حياتهم فى مهنة ثابتة مستقرة ، يفقدون كل صلة بينهم وبين العالم . فالمرأة التى تقدم اليهم ، بانتزاعهم من عملهم الرتيب الجنونى ، الغابات والمياه ، والجبال والمحيطات ، تصبح وقد حليت فى نظارهم بكل ما كشفت لهم عنه من بهاء .

« خلق الرجل للقتال : والمرأة ، من أجل راحة المقاتل » . وفن الحب

المرأة ، هو أن تكون فى وقت واحد ترفيها وتشجيعا وعونا : فلتنظر إلى لويس الرابع عشر وكيف استولت عليه «مدام دمنتنون» ( Madame de Maintenon ). فليس من عمل كان يبدو أدعى إلى اليأس والإخفاق من هذا العمل . فإن « مدام دمنتنون » لم تكن بعد شابة ، وهى لم تتقرب إلى الملك إلا كمربية لأطفال « مدام دى مونتسبان » ( Madame de Montespan ) الرائعة الجمال ، المسيطرة على عقل الملك . فتلك المرأة المتواضعة الناضجة لم تنتزع لويس الرابع عشر من غريمتها الفاتنة فحسب ، ولكنها أيضاً ، استحوزت عليه وانتهى بها الأمر إلى الزواج منه ، الأمر الذى لم تكن مدام دى مونتسبان نفسها لتجرؤ على أن تؤمل فيه أو تحلم به .

فترى ماذا كان سرها ؟ السر الأول أنها بدت للملك ، الذى بدأ يمل ثورات عشيقته وحماقاتها ، كربسوك للسلام . فالرجال يحتملون إلى حين ، من المرأة التى يهيمون بها ، سورات الغضب أو الغيرة . ويهوى البعض فى الحب الثورة والاضطراب كما يهوى فى البحر العاصفة . ولكن أكثرهم مسالمون يحبون الهدوء . فرقة الطبع ، والبساطة ، والوداعة تقهرهم وتأسرهم بسهولة ، وعلى الأخص إذا كانت إحدى الحمقاوات قد شفت نفوسهم من قبل وأبرأتها من الميل إلى العنف .

والسر الثانى لمدام دمنتنون : أنها كانت تعاون كل ليلة فى عمل الملك ، الذى كان يجمع وزراءه فى بيتها . فكانت تستمع إلى التقارير فى صمت دون أن تفوه بكلمة ، ولكن إذا استفسرها الملك أمراً ، أثبتت بأفكار سديدة ، أنها كانت تنصت وتفهم وتحكم . . . موقف سديد ولباقة

تامة ، إذ أن الرجل الجديد بهذا الإسم يحب عمله أكثر من أى شىء فى العالم ، أكثر أيضا من المرأة التى يحبها . أفتسعى هذه إلى أن تحوله وتصرفه عن عمله لتشغله جميعاً بها ؟ قد يدعها تفعل فى البداية ، ولكن ليس بدون استياء شديد ، وسيكون فى يوم ما لتلك التى ستعرف كيف تمزج عمله بلهوه .

هـ — الثقافة : ألم تر كيف تغرد الأطيار وتغوص فى الماء بنفسها ، وكيف يقوم سرطان البحر فى البرك بألعابه الغرامية بذاته ؟ أما الإنسان فقد ابتدع التأثير والبراعة « بالنيابة » . فالمحب بدلا من أن ينظم الأشعار ، يقرأ على محبوبته أشعار بودلير ، ولاعب البيان ، كيما يحظى بالمحبة ، يلعب لشوبان . إن نبوغ الأستاذ يفيض على شراحه ومريديه . فالإنفعالات التى يولدها ، بارتباطها بالحاضر ، تقوى صورة وتحمل ذكريات . والموسيقا بفرضها على النفوس إتساقها الجميل وبهجتها الخارقة إنما تهيؤها عادة للحب . لقد ألف بيتهوفن وموزار وفاجنر بين أكثر من زوجين . وكثير من الروابط إنما تبدأ فى المتاحف الفنية . والقصص الجميلة يقرأها المحبون فتعطيهم فى وقت واحد موضوعات للمسامرة ونماذج للسلوك والمعاملة .. والقصص الحسن الرفيع دروس فى الحب تعلم هذه العاطفة كما ينبغى أن يتعلمها الخليقون بها . والثقافة المشتركة إنما تسمو بالحب إلى مستوى عال رفيع من الوله والهيام . إنها تتيح قضاء أوقات السأم العصيبة حيث « يسبب الشبع من ثدى اللذات شيئا من المرارة » ، إنها إعداد للحب وتهيئة للغرام .

و — العقيدة المشتركة : أيا كانت العقيدة الدينية ، فإن العقيدة القومية

أو السياسية ، أو الإيمان بمؤلف أدبي أو عمل فني جميل ، كل عقيدة مشتركة إنما تقوى الحب وتشد أزره إلى حد عجيب . ومن العسير جداً على الشخص القوى الإيمان أن يحب ذلك الذى لا يشاركه بالمرة فى عقائده ، إذ لو كان « الحب هو البهجة المصاحبة لفكرة تثيرها فى نفس الحبيبين علة خارجية » فإن الإختلاف البعيد سيتعارض بالضرورة مع هذا الحب . ولا ينقذ الحب عندئذ إلا أحد أمرين : إما حصافة وإجلال لا حد لهما لدى المنكر نحو ما لا يؤمن به ، أو أمل ورجاء عند الآخر فى هداية وتوبة كثيراً ما يجلبهما الحب . فمشاركة المحبوب فى عقيدته دون تحفظ أو حيطة توكيد لاشك فيه للسعادة . إذ أن كل قوى النفس والحس تدفع الإنسان في الإتجاه المختار . وكل عمل يؤدى مع حب يكون لذيذا عذباً ، ولكن الحب الممزوج بالعمل هو ألذ وأعذب مافى الوجود . ولذا تنشأ تلك الزيجات السعيدة المدهشة بين العلماء والفنانين والقديسين الذين هم أزواج وزملاء فى ذات الوقت . وهنا يصبح كل « تودد » لا نفع فيه ولا داعى له فقـــد حلت محله « وحدة العقيدة » .

## ٥ — دفع الفتور عن الحب

بعد تودد وجيز أو طويل ، رزين أو ساذج ، يولد الحب . ولكن نسبة الوفيات فى طفولة الحب كبيرة عظيمة . ويلزم لتربية الحب الطفل من رعاية مستمرة دائمة . والجدة التى هى من أقوى المفاتن هى أيضا أسرعها إلى الزوال . ففى بداية كل حب يكون أمام كل شخص ألف شىء ليكشفه فى

الآخر . ويستوحى كل إنسان من شبابه ذكريات وصوراً وأغانى وملحا ، إذا امتزجت بالمداعبة والملاطفة تجعل أيام اللهو الأولى أياما حلوة مستساغة .

ولكن للأسف ! سرعان ماتنفد الذخيرة وينضب المعين ، فإذا القصص التى كانت تبدو غريبة طريفة تصبح مملة ممجوجة . وكم من الرجال والنساء يصبحون أكثر تألقا وجاذبية عندما ينفصلون عن شريكهم وخدينهم المألوف لأنهم يستطيعون عندئذ أن يكرروا دون حرج ولا ضيق ماسبق أن قالوه مراراً . فلترقب فى مطعم من المطاعم الأزواج الجلوس حول الموائد . إن مدة صمتهم تتناسب فى الأغلب مع مدة حياتهم وعشرتهم المشتركة .

هذا إذا كان هؤلاء الأزواج عاطلين من الحذق والبراعة . إذ الحذق فى الحب يقوم على صون الجدة الدائمة بين الزوجين . فالمحب الحق يجد متعة كاملة فى التريض كل يوم خلال أفكار وخواطر ذلك أو تلك التى يحبها ، كما يجد قسيس القرية لذة فى أن يجوب كل مساء مسالك بستانه ودروبه الضيقة . ومن الناس من يولدون أوفياء مخلصين ، سواء لأنهم كونوا فكرة رفيعة سامية عن الحب ، أو لأنهم يحسون فى أنفسهم الخجل والانطواء ، وبعض الزيجات السعيدة تستند إلى كراهة الصراع والخوف من العالم ، أو إلى الرغبة فى الحياة المنزلية بين الأهل وما ألفه الإنسان من الحاجيات ، وأخيراً إلى الرغبة فى الطمأنينة والأمان . ولكن من يحب حباً قويا جياشا يتعلم ، إذا لزم الأمر ، « التجديد » . « فالإنسان يستهلك كل يوم وسائل المسرة والبهجة ، ومع ذلك فعليه أن يبهج وأن يبتهج » . وليس هذا بالمجهود الإدراكى . فعندما يكون المرء لطيفا ظريفا ، فإنه يكون كذلك دائما ، ولن يضجره ظرفه . ففى كل فعل

وفى كل كلمة بهجة وفتنة . والشيخوخة ذاتها لا تغير الطبائع . فالوجه الجميل يهرم ، وإنه ليلذ للإنسان أن يعثر ، تحت الشعر الأبيض ، على النظرة والإبتسامة اللتين كان يحبهما تحت الجدائل الفاحمة أو الشقراء .

فهل هناك من فن لتجنب الفتور ؟ إن السر الأكبر هو ترك النفس على طبيعتها . إن كل جلسة متكلفة تكون دائما متعبة وخالية أبداً من كل جمال أو أناقة . كذلك المحبون العقلاء هم أولئك الذين يأخذون شريكتهم على طبيعتها وسجيتها . وهناك من الرجال من يزعمون تحوير المرأة وصياغتها فيفرضون عليها أذواقا معينة وآراء خاصة . أية حماقة يرتكبون ؟ ! إنها إن كانت أبعد فى الإختلاف عنا من أن نستطيع حبها ، فلن نحبها . أما إذا كنا قد اخترناها لأنفسنا فلندعها تتطور وتتغير بحرية . فى الصداقة كما فى الحب لا يأتلف الإنسان إلا مع أولئك الذين يكون بينهم على طبيعته الحقة دون تكلف أو ادعاء أو رياء .

ويهوى بعض المحبين اللبقين أن يكون اللقاء فى أماكن كستها الطبيعة جمالا وحسنا . ومن هنا نشأت تلك العادة الحكيمة ، عادة الارتحال بعد الزفاف ( شهر العسل ) . . ولكن ليس من اللازم أن نذهب بعيداً فى ذلك . فالمرأة المحبة تعرف بغريزتها كيف تقيم بنفسها ما يزين حياتها . وبعض النساء يظهرن فنا رائعا يستعن به على تهيئة جميع مفاتن الطبيعة والفن الجميل . إنهن يحدسن اللحظة التى يود فيها الحبيب الخلوة ، والوقت الذى يرغب فيه . على العكس ، فى التريض أو فى مشاهدة حفل موسيقى . فالمرأة ، لانشغالها بشئون الحياة الإجتماعية أكثر من الرجل ، هى التى عليها تدبير حبها وتنسيقه .

وعلى الرجل أيضا ، إذا لم يشأ أن ينال الفتور الإرادة الطيبة والحنان الجميل ،

أن يفهم أهمية المكانة التى يحتلها الحب فى حياة المرأة . وليس أغبى وأحمق من رجل يرنو باحتقار وازدراء ، من برج فلسفة خاصة أو مبدأ من المبادىء ، الى آراء المرأه وأفكارها . إنها تختلف عن آرائه وأفكاره ، ولكنها أخص منها وأبسط وأحكم . وإذا اختلف الرجل مع حبيبته وتخاصما فى أمر من الأمور ، فلن يستطيع أبداً إقناعها بالحجج العقلية والبراهين المنطقية ، وإنما بالرفق والصمت والأناة . فلا ينبغي له أن ينسى أن المرأة ، فى شطر كبير من حياتها ، تكون خاضعة ، أكثر منه ، لسيطرة أعصابها وتحكمها . فإذا ظن الرجل ، فى مثل هذه الأوقات العصبية ، سوءاً بما ليس هو إلا شكوى جسد عليل ، وعده روحا سيئا خبيثا ، فإنه إنما يجازف ، لحالة عارضة ، بهدم علاقة ، كانت ويمكن أن تظل ، من أجمل العلاقات ... إنه تصوير ساذج ، ولكنه على شيء كثير من الحق ، أن تقارن نزوات نفس المرأة بحركات أمواج المحيط . فالزوج العاقل لن يفلت زمام حلمه أبداً . إنه كالملاح وسط العواصف ، يطوى الشراع ، وينتظر ويأمل . فلا تمنعه العواصف والزوابع من أن يحب البحر .

ولفن تجنب الفتور قواعد مشتركة ينبغى اتباعها من الجنسين معا . القاعدة الأولى أن تبدى في الحب الوثيق القديم من التلطف والكياسة بمقدار ما كنت تبدى فى أول لقاء . إن الرقة والتأدب والمجاملة لا تتنافى مع الطبيعة والسجية عند ذوى المنبت الطيب . وإن الإنسان ليمكنه أن يقول كل ما يريد قوله بلطف ورقة ، وسيكون من الخلط العجيب أن تتخذ القسوة أو الفظاظة على أنها الصورة الوحيدة للصدق والصراحة . . والقاعدة الثانية هي أن تحتفظ فى كل الأحوال بروح المرح والفكاهة التى تجعل الإنسان يعرف كيف يضحك ويسخر حتى من نفسه ، وأن يدرك أن أغلب الخلاف إن هو إلا سخف صبيانى .

وأن لا يعلق أهمية جدية على مجموعة الأخطاء والشكاوى التى تملأ خزانة الحياة الزوجية . إنه من العبث أن يضخم كل إساءة حالية بتذكر المشاحنات الماضية . . والقاعدة الثالثة أن تستبقى الغيرة فى حدودها المعقولة ، وبعبارة أخرى أن تتجنب فى نفس الوقت التساهل ، وعدم الثقة ، فكلا الإثنين مؤلم مهين . . والرابعة أن تتيح أحيانا ، بالبعاد ، الفرصة « لتبلور » جديد . . و « الإجازات » الغرامية أو الزوجية لها خطرها ، ولكنها إن كانت قصيرة الأمد تقطعها الرسائل والمكاتبات ، فإنها تؤدى دورا نافعا . فيحدث أن يفتقد الإلف ، بفعل التعود والتهاون الصوت الرقيق الحنون فى محادثة إلفة ، فيجده ثانية فى عبارة يخطها قلمه . . . والقاعدة الأخيرة وهى أشد القواعد خفاء وأكثرها سرا ، هى أن تظل عاطفيا « خياليا » : « لماذا أنا أتودد اليها وقد ظفرت بها وملكتها ؟ . . . . لأنها وإن كانت لى فى الماضى ، فإنها ليست الآن ، ولن تظل إلى الأبد لى . . . » نظرية بارعة ، على النساء الجديرات بها أن يتأملنها . .

ولكن « دفع الفتور والملالة » عن المرأة المحبوبة سيصبح فناً لا نفع فيه ولا جدوى إذا المرء مل المرأة ومشتها . فهل من فن إذن لدفع الملالة عن النفس ؟ أو أنه على العكس يجب الاعتراف بوجود صنفين من الرجال والنساء : الأوفياء وغير الأوفياء ، الثـــابتون والمتقلبون ، وأنه إذا انتمى الشخص إلى أحد الصنفين فمن العبث تماما أن يتقمص أخلاق الآخر ؟ إن اعتقادى فى هذا ، كما فى أى شيء آخر ، أن الطبيعة تقدم بعض مواد أولية معينة على الإرادة أن تنظمها وتدبرها . فالرجل أو المرأة لا يولدان متقلبين ، إنهما

يصبحان كذلك بما يصادفهما فى أول حياتهما الغرامية . فأولا قد يكون أحدهما مضطرم المزاج مشبوب العاطفة فيغرم بحبيب بارد الطبع واهن الوجدان . فى هذه الحال إن كانا ممن يرعون للأخلاق والمجتمع حرمة فإنهما سيكونان وفيين شقيين ، وإن كانا ممن لا يعيرون الأخلاق اهتماما ، فإنهما سيكونان خائنين تعسين . هذا ، إلى أن يلتقى كل منهما « بنصفه » المتمم له فتجده وقد تحول تحولا مفاجئا . فكثير من الناس كانوا يحيون حياة صاخبة عابثة مغامرة وإذا بهم يركنون بغتة إلى حياة هادئة مستقرة ، ذلك لأنهم قد عثروا على الشريك الموافق لهم اللائق بهم .

هذا عن التقلب الطبيعى ، ولكن هناك أيضا تقلبا نفسيا . فالرجل الموفق فى الحب ( الدون جوان ) ليس دائما ذا طبع نهم شره ، والمرأة الموفقة فى الحب ( دون جوانة ) هى عادة ذات مزاج هادىء رطيب . ونصرهما وظفرهما إنما هو لذة العجب أو متعة الخيال . وينبغى على الرجل أو المرأة أن يحدا من عجبهما ويخففا من غرورهما بأن يشكا فى نفسيهما . لقد سمع « بايرون » الفتاة الأولى التى أحبها وهى تقول . « وكيف أستطيع أن أهتم بهذا الغلام الأعرج ؟ » فراح يسعى طوال حياته فى الأخذ بثأره والإنتقام من المرأة . . فامرأة كهذه تحطم بقسوة الحياة الزوجية التى تكتنفها ، لأنها بطفولتها تلك تعتبر فتاة شريرة وقحة . فلحاجتها إلى تعزيز ذاتها فإنها تقدم باستمرار البراهين على قدرتها . . . والخيال الجشع يتولد عادة عن طفولة واهمة خيالية أى بعيدة عن الحياة الواقعية . لقد أخذ شاتوبريان ينتقل من امرأة إلى أخرى ، وذلك لأنه فى حداثته كان يعانى آلام الشهوة المكبوتة لم

وكان فى ذات الوقت محروما من النساء اللاتى كن يستطعن إشباع شهوته ،
فصور المرأة فى صورة مثالية راح ينشدها عبثا طوال حياته . وظل هكذا
مخدوعا خائب الرجاء فى النساء ، تلقى به حيرته إلى امرأة ليغادرها وشيكا إلى
غيرها ، حتى خففت السن من غلوائه ، وحدت من إسراف خياله ، فاستقر
به المقام فى حضن المرأة التى اعتقد أنه وجد فيها مثله الأعلى و « حوريته »
مجسدين : تلك هى « جولييت ريكامييه » .

ولعل الطبيب الحاذق أو الواعظ الأمين أن ينجحا أحيانا فى التغلب على
هذا التقلب النفسى ، إذ عندما يدرك المصاب طبيعة حالته وعلتها فإنه قد
يتخلص منها . أما إذا كانت حاله مما يستعصى معها علاج فعليه أن يقلل من
أذاه بقدر المستطاع فيحذر أن يوقع بالأوفياء المخلصين فى حبه العابر العابث .
وللأهواء والنزوات عذرها ، وإنما الجريمة التى لا غفران لها هى أن يوقظ
الإنسان ، لإرضاء نزوة عارضة ، عاطفة باقية وحبا ثابتا فى قلب غيره .

## ٦ — تطهير الشهوة

كما أن القداسة الحقة لا تقوم على الذهول والاستغراق والتقشف ، بقدر
ما تقوم على التواضع والرقة والإحسان ، فكذلك الحب العظيم إنما يستبين لا
لا من جموح الشهوة وفورتها ، لكن بالاتساق التام والتوافق الدائم فى شئون
الحياة اليومية . ويقص « الأب هفلين » قصة تلك الفتاة المتدينة التى جاءت
يوما إلى القديسة سانت تريزا تسألها عن القداسة . واعتقدت الفتاة أن القديسة
ستقص عليها من أنباء الوحى والكشف والرؤى . ولكن سانت تريزا

طلبت اليها ببساطة أن تتبعها إلى داخل بيت حديث قد شيدته . وهناك قضت معها شهورا عدة فى كد وتعب ومشقة وحرمان وعمل متواصل ، وأخيرا اجترأت الفتاة على السؤال ثانية : متى ستعلم ما القداسة . فأجابتها القديسة تريزا : « القداسة ؟ إنها ليست شيئا سوى أن تتحملى بصبر وحب حياة كتلك التى حييناها فى هذا البيت . »

إن ملذات الشهوة الرائعة ، كما يمكن أن يعرفها المحبون السعداء ، لشبيهة بأيام الصيف البديعة حيث تغمرنا حرارة الشمس بالفتور والغبطة ؛ وحيث السماء نقية من كل مكدر وصافية صفاء لا نستطيع معه أن نتصور أن فى الإمكان تكدرها بعد ؛ وحيث تصبح السهول فى أكثر القرى تواضعا ، وقد بدلتها الأضواء أيما تبديل ، سرابا خلبا . هذه الأيام الجميلة ، والذكريات البهيجة التى تتركها فينا ، والأمل فى أن نصادف مثيلاتها ، لا بد منها لتمنحنا القوة والشجاعة على تحمل الأيام العاصفة الثائرة . ولكن ما دام لا الصيف ولا الشهوة يمكن لها أن يدوما أكثر مما قضت به سنة الطبيعة ، فينبغى علينا أن نتعلم كيف نحب كذلك الأيام الأشد اغبرارا ، أن نحب غمائم الخريف وليالى الشتاء الطويلة . وكما يقول « أبل بونار » ( Abel Bonnard ) : « إن أجمل الإنفعالات الغرامية لتشبه ذلك الرداء الذى يلبس فى الحفلات وقد بطنت ظهارته الحريرية الفاخرة الموشاة بالوشى الثمين ببطانة مماثلة لها تمام المماثلة ولكنها من الرقة واللطف والطرافة حتى لتغرى الإنسان بتفضيلها على ما تبطنه . »

من أين لنا هذه السعادة الدافقة الرقيقة ، التى تأخذ مكانها ، منذ بدء

الحياة الغرامية ، بجانب الشهوة فى خجل وخفر ، ثم سرعان ما تتحول إلى قوة ذات سلطان لطيف حليم ؟ ومن أين لنا هذا الحب الذى يتولد من الشهوة ، ثم يخلفها ويبقى بعدها ؟ من الثقة والإلفة والإعجاب . إن أكثر البشر مخادعون مخاتلون . ولكن قليلين منا يسعدون بمقابلة رجل ( أو امرأة ) لم تخدعهم طبيعته وطويته أبداً ، يعاملهم بما يأملون أن يعاملهم به ، ولا يهجرهم فى أشد أوقاتهم ضيقاً وحرجاً . هؤلاء يعرفون ذلك الشعور العجيب : الثقة. إنهم يستطيعون على الأقل ، لحظات كل يوم ، أن يجدوا شخصاً يأمنون له ويلقون أمامه بأسلحتهم ودروعهم التى تنقض ظهرهم ، وأن يتنفسوا بحرية ، وأن يعبروا عن ذاتهم ويكشفوا عن قلوبهم وصدورهم دون خوف عليهم ولا خشية .

والثقة ، كالشهوة ، أمان وتوكيد دقيق حتى أنها لتخلع على أتفه الأفعال جمالا وفتنة . فهذا الرجل وهذه المرأة كانا يتمنيان فى شبابهما لحظة يختليان فيها للعناق، وهما يتمنيانها الآن للمسارة والمناجاة . إن ساعة التريض والتنزه أصبحت عزيزة عليهم كالمواعيد الغرامية الأولى . إنهما يعرفان ويفهمان ويتنبآن معا . إنهما يفكران نفس الأفكار فى نفس الوقت . إن كلا منهما يألم لألم الآخر ويحزن لحزنه . وكلاهما وقد عرف قدر الآخر على استعداد ليهبه حياته .. ولا شك أن الصداقة الكاملة يمكنها كذلك أن توحى مثل هذه المشاعر ؛ ولكن الصداقة الخالصة شاذة نادرة . بينما الحب العظيم يجعل أشد الناس سذاجة حقيقين بالعظمة وإنكار الذات والوفاء .

كيف أصف حياة إلفين سعيدين وهما فى خريف الحب ؟ كيف أبين أن

الله وهو لا يزال إلها قد اتخذ صورة إنسان فان ؟ إن هذا لعسير . إن « سيمفونية » السعادة قد تكون رائعة جليلة إذا وضع أنغامها ملحن عبقرى . وقد تسمو بالموسيقى العادى قسوة الحياة وأنواؤها . وإن أنغام مقدمة « البارسيفال » الموسيقية لفاجنر ، التى تزداد دائماً صفاء وسموا ، لتعلو بروح المستمع إلى ما فوق ذاته . وإن « النعيم » لفرانك ، و « النشيد الجنائزى » ( Requiem ) لفوريه ، ليثيران فى النفس ، أكثر من الألفاظ ، أعجب نشوة وانتعاش ، ويزيدان ، زيادة طبيعية وقوية ، التوافق والإتساق الأبديين . وإذا كنت قد استشهدت بالنشيد الجنائزى ، فذلك لأن فكرة الموت هى « النشاز » الوحيد فى لحن الحب العظيم .

ولقد عبر « كوفنترى باتمور » ( Coventry Patmore ) فى قصيدة رائعة عن رجل التاعت نفسه واختلط عقله إذ ألفى نفسه فجأة ، بعد حياة سعيدة طويلة ، أمام جسد امرأته الحبيبة التى كانت لديه العالم بأسره . وفى لوعة وحرقة وشكوى وحنان يروح يناجيها معاتبا على هجرانها إياه :

« إن هذا لغريب عن سجاياك الرقيقة وخلقك الكريم . .
« ألا تندمين أبدا ، ياحبيبتى ، على هذا الأصيل الحزين . .
« إذ بغير قبلة حلوة ، ولا كلمة وداع أليم . . . . . . . . .
« وإنما بنظرة ملتاعة ، ولفظ مبهم غير رصين . . . . . . . .
« تبادرين إلى هذا الرحيل البعيد والهجر النميم . . . ؟ . . .
« حقا إن هذا لغريب عن سجاياك الرقيقة وخلقك الكريم . » .

هو خطر الحب ونبله فى نفس الوقت ، أن تجازف بكل شىء على وجود إنسان ، وإنسان سريع العطب .

ولـكن الموت نفسه لضعيف عاجز أمام الحب الـكبير ... قابلت يوما فى اسبانيا ، قرويةعجوزا ذات وقار عجيب فقالتلى : « أوه ! أنا ، ليس عندى ما أشكو منه . . . حقا ، لقد كانت لى آلامى فى حياتى ، ولـكن فى العشرين من عمرى أحببت شابا . . . وأحبنى ؛ وتزوجنا . . . ثم مات هو بعد بضعة أسابيع . . . فكان على أن أقوم بنصيبى فى الحياة ، ومنذ خمسين عاما وأنا أعيش بهذه الذكرى . » إنه لعزاء كبير أن يستطيع الإنسان فى وحدته وآلامه ، إستثارة ذكريات خالصة ماضية . وبهذا الحب النقى الذى لا تشوبه شائبة ، وبهذه الصور المضيئةاللطيفةالتى يعمربها الحب أفكار المحبين وأحلامهم ، كما تعمر بأعمال الفنانين الـكبار أو كما تعمر بالإيمان ، بهذا الحب يشارك الإنسان شيئا أرقى منه وأسمى . فمن هذه الصدمة السريعة للغريزة تقدح شرارة إلهية مقدسة .

ماذا ؟ أرى عبثا ما حاولت قوله عن الحب . « فليس الحب فى حاجة إلى علماء محللين ، وإنما إلى شعراء مفطورين » . . فالـكلمة الأخيرة فى فن الحب لانجدها عند « ستندال » ، وإنما نجدها ، كما يقول ستندال نفسه ، عند موزار .. فلتذهب إلى حفل موسيقى ، ولتصغ إلى النغم الصافى الرائق ، وتوافق الألحان واتساقها الفاتن ، فإذا بدا لك حبك مع هذا مشوشاً ، فظا ، نافرا ، فأنت إذن جاهل بفن الحب . أما إذا استشعرت فى نفسك هذا الـكمال ، وهذا التآلف العجيب ، وهذا التوافق فى الألحان البعيد عن كل تنافر ونشوز ، فأنت إذن تحيا حياة فريدة جديرة بالحياة : حياة الحب العظيم .

# ٣
# فن العمل

« إن متعة النفس وبهجتها فى العمل »

شيلى

ما معنى العمل على التحقيق ؟ « العمل بمعناه الأدنى : هو بذل الجهد لإنجاز فعل أو شغل » . ولكن لا يبدو لنا هذا التعريف جيداً بارعاً . لماذا « بذل الجهد » ؟ ألا يمكن للإنسان أن يعمل فى غبطة وسرور ؟ فلنطو القواميس ولنضرب الأمثال . الزجاج يعمل . ماذا يعمل ؟ إنه يأخذ قطعة من العجين لا صورة لها ويصوغها فى شكل نافع . وماذا يفعل عامل التعدين ؟ إنه ينقل مادة أولية ( فحماً أو حديداً ) ويدفع بها إلى رجال يحولونها إلى قوة وحرارة وآلات . وماذا يعمل المزارع ؟ إنه يشق الأرض ويعدها لقبول البذور ، ثم ينقل هذه البذور إلى المكان الذى يمكنها أن تنبت فيه . وماذا يصنع الروائى ؟ إنه يضع فى حكايات وقصص « المادة » البشرية التى يجمعها من ملاحظاته ومشاهداته ، ويصوغ ، كصانع الزجاج ، من هذه العجينة التى لا هيئة لها ، فناً أدبياً . وماذا يفعل طالب العلم ؟ إنه يحاول أن يحصل لنفسه المعارف والعلوم التى اكتسبتها البشرية من قبله ؛ إنه ينظم من عقله ؛ إنه « يصنع نفسه » . . فالعمل ، هو أن يفرض الإنسان على المواد والكائنات التى أوجدتها الطبيعة تحولاً أو تنقلا يجعلها أعظم نفعاً أو أكثر جمالا ؛ إنه أيضاً دراسة قوانين هذه التحولات ، إعدادها أو تنظيمها .

## ١ — نتاج العمل

مع أن أعمال الإنسان متعددة متباينة ، فإنه ينبغى أن تكون هناك قواعد عامة مشتركة لكل العاملين :

ا — من بين الأعمال الممكنة يجب الإختيار — إن قدرة الإنسان وذكاءه محدودان بحدود ضيقة . فمن يرغب في عمل كل شيء ، لن يعمل شيئاً أبداً . وإنا لنعرف حق المعرفة أولئك المتشككين المترددين الذين يقولون تارة : « إن في قدرتي أن أكون موسيقياً نابهاً » ، وتارة أخرى : « إن شئون الصناعة لجد سهلة يسيرة » ، وتارة ثالثة : « لو أنني اقتحمت الحياة السياسية لنجحت فيها نجاحاً محققاً » . فلتكن على يقين من أن هؤلاء سيصبحون دائماً موسيقيين هواة ، وصانعين فاشلين ، وسياسيين مغلوبين على أمرهم . لقد كان من رأى نابليون أن فن الحرب يقوم على أن تكون الأقوى في نقطة من النقط ؛ ويقوم فن الحياة على اختيار نقطة للهجوم تركز فيها كل قواك . يجب عليك أن لا تترك إلى الصدفة إختيار حرفتك . « فيم أنا أصلح ؟ ماهي إستعداداتي وميولي الطبيعية ؟ » ، بهذا يجب أن يتساءل الإنسان منذ البداية . فمن العبث أن تطالب الطبيعة بما لا يمكن أن تهبك إياه . فإذا كان لك ولد جريء القلب مقدام ، فأحرى بك أن تجعل منه طياراً لا رئيس مكتب . ولكن مادمت قد اخترت ، فليس لك أن تندم أو تأسف ، مالم يكن هناك خطأ أو ظرف قاس .

ومن الضروري كذلك عمل إختيارات جديدة ، داخل الحرفة المختارة . فالكاتب لا يستطيع الكتابة في « كل » الموضوعات ؛ ورجل السياسة لا يمكنه إصلاح « كل » الإدارات ؛ والرحالة لا يمكنه زيارة « كل » البلاد . فأنت هنا كذلك ستبعد ، لأمر خارج عن إرادتك ، الرغبات التي تتجاوز قدرتك وتفوقها . ولتنتهز لإختيارك الوقت النافع المفيد ، وليس وقتاً غير معين ولا محدود .

ولقد اعتاد الرجال العسكريون ، إذا هم قدروا ووزنوا نتائج أمر من الأوامر ، أن يضعوا حداً ونهاية للجدل بكلمة : « تنفيذ ! » فلتنه إذن جدلك الداخلى . « ماذا أفعل فى العام المقبل ؟ أأحضر لهذا الإمتحان ؟ أو لذاك الآخر ؟ أم أرحل إلى الخارج ؟ أم ألتحق بهذا المصنع ؟ » ومن الطبيعى أن تناقش هذه المسائل بتمعن شديد ، ولكن من الضرورى كذلك أن يحدد زمن معين يجب بعده إتخاذ قرار . وهذا القرار هو : « التنفيذ ! » وعندئذ لا يجدى الندم ، ولا ينفع التغيير .

جميل منا ، لتوكيد صدق إختيارنا ، أن نرسم ، من وقت لآخر خطة للعمل تبين فى نفس الوقت الغايات البعيدة والموضوعات القريبة . وبإعادة النظر إلى هذه الخطة بعد بضعة شهور ، أو بضع سنين ، ندرك مقدرتنا وحدودنا . ولكن من الضرورى أن نستبعد ، من بين عناصر الخطة ، ما يتطلب أولا أفعالا سريعة مباشرة ، فإلى هذا ينبغى توجيه كل اهتمامنا ، فلتفعل ما تفعل . ولتفعله من كل قلبك . ولتنزع بجسمك وروحك صوب الغاية . فإن أدركتها ، أمكنك أن تنكص على عقبيك ، وأن تسبر هذا الطريق الذى قطع عليك سبيلك ، وأن تتأمل هـــذه البقاع . ومادام العمل لم يتم نجزه ، فلا أوبة ولا نكوص .

والرجال الملائمون المرغوبون هم أولئك الذين يهتمون بكل شىء ؛ والرجال الذين يعملون الأشياء وينجزون الأعمال ، هم أولئك الذين لا يهتمون ، فى وقت واحد ، إلا بشىء واحد . « عقول ذات مسلك واحد » كما يقول الأمريكيون ( One track mind ) وقد يضيقون أحيانا بإصرارهم

وبإلحاحهم . ولكن كراتهم المتوالية قد تنتهى بتخطيهم العوائق .

ب — يجب الإعتقاد بإمكان النجاح — إذا أنت أحسنت اختيار غايتك فمعنى اختيارك هذا أن قدرتك وقواك تبيح لك الوصول إليها . إنه من العبث ومن الخطر افتراض موضوع ممتنع الإدراك . فالفشل قد يميت الثقة والإيمان بالنفس ويشل الجهد والسعى . لقد نصح «جيته» إلى الشعراء الشبان أن ينظموا الأشعار القصيرة أولى بهم من نظم الملاحم المطولة . ويقول « صامويل باتلر » : « يجب فى أكل العنب البدء دائما بأفضل حباته . » ولعله من الأسلم والأصوب عند الكتابة فى موضوع واسع معقد أن تؤلف أولا الأجزاء الأكثر سهولة ويسراً . وإذا كان الطريق أشق وأطول من أن تقطعه فى نفس واحد ، فلا شيء أحق بك من أن تقسمه إلى مراحل ، وأن توجه اهتمامك كله إلى كل مرحلة ، بأن ترفض النظر الى مابعدها ، كما يرقب متسلق الجبال كل خطوة يخطوها على الجليد ويأبى أن يرفع بصره نحو القمة التى يروعه بعدها ، أو أن يخفضه الى الهوة التى يفزعه عمقها .

ان كتابة تاريخ بلد بأكمله ، يبدو لأول وهلة مشروعا خارقاً يفوق قدرة البشر . فلتقسمه الى عصور ، ولتشتغل بأحد هذه العصور ، ذلك الذى تعرفه أفضل من غيره ، ثم إلى مايليه . وسيدهشك غاية الدهش أن تجد نفسك يوما فى نهاية متاعبك ، وستنظر مذهولا إلى ذلك الحائط السامق من الجليد الذى تجاوزته . وبعد بضع تجارب يقوى القلب وينتظم التنفس . فالمؤلف الذى كتب عدداً ضخما من الكتب لايرتاب فى إتمام مايبدأ . فهو ، « كارتن ديجار » ، و « ديهامل » و « جول رومان » لايتردد فى أن يشرع فى تسلق مرتفع هائل

من المجلدات ، إنه على يقين من بلوغ القمة يوماً من الأيام .

لما وصل المارشال « ليوتى » ( Lyautey ) إلى مراكش ، وجدها بلاداً مضطربة مفككة ، لا رؤساء فيها ولا مالية لها ولا جيش . ولو كان غير المارشال لتولاه اليأس فى تنظيمها . ولكنه إهتم أولا بتثبيت قوته فى المدن التى دخلها ، مثل رباط وفاس ، فجعلها مراكز يشع منها إصلاحه من قبيلة الى قبيلة واتبع سياسة التوسع المستمر فى سكون وهدوء فأفلح بالتدريج ، وبعد مجهودات طويلة قضى على الخلافات فلم تعد شيئاً مذكوراً . . وكذلك « لا يحصد الحقل فى وقت واحد » . وهكذا ربة البيت التى تريد القيام بتنظيف بيتها فإنها تتناول دواليبها رفاً رفاً . والشاب الطائش يعتقد أن كل شىء هين يسير ويستعد ليقظة مفزعة ، بينما يعتقد الجبان الخائر أن كل شىء مستحيل ويحجم من قبل أن يقدم . . إن العامل المجيد يعلم أن الأشياء العظيمة ممكنة ، وبكل حكمة وتعقل ، يتمها شيئاً فشيئاً .

ج — يجب تهذيب العمل — يشكو الكثير من الناس من قصر الحياة ، ولكن أيعيشون هم حتى ثمانى ساعات فى اليوم ؟ إن العمل الذى يمكن أن يأتى عليه الرجل ، الذى يشتغل منذ الصباح الباكر أمام مائدة عمله أو فى مشغله أو فى حانوته ، لعمل عجاب . إن الكاتب الذى يكتب صفحتين فقط فى اليوم سيجد نفسه فى نهاية حياة طويلة ، قد عادل فى الإنتاج ، ليس أكيداً فى براعته ولكن فى مقداره ، إنتاج « بلزاك » أو « فلتير » .

ولكن لا يكفى الجلوس أمام مائدة العمل . بل يجب أيضاً رعايته وصونه . إن قوة العمل أو أثره يزداد تبعاً لمتوالية هندسية إذا لم يعرض للعمل ما يقطعه .

ويتضح هذا عند الكاتب الذى يحتاج إلى الوقت الذى يشرع فى أن ينسى العالم الخارجى ويخلو الى أفكاره وصوره . وهو صحيح كذلك عند « الميكانيكى » الذى يبحث عن علة توقف آلته ، أو عند رئيس المصنع حين يعد ترتيباته وتنظيماته . إن آفة كل عمل مبتور غير منتظم هو مايعرض له من عائق يعوقه .

فمن واجب العامل إذن أن يقصى عنه مضيعى الوقت ، أو « الثقلاء » ، كتعبير « موليير » إنهم لارحمة لهم . فهم يسلبون من وقت من لايقاومهم حتى آخر ثانية ، دون أن يفكروا لحظة واحدة فى أنهم لو تركوه وشأنه لأمكنه أن يؤدى عملا قيما . إنهم لاتقدير لهم للأمور ولا تقويم . فقد يجىء ثقيل عنيد ، يوم إعلان الحرب ، ليعرض على رئيس هيئة أركان حرب جيوش الدولة ، حالة حاجبه الخاص ! وهم يقومون بعملهم إما بالزيارة أو بالتليفون أو بالمراسلة . إنه لمن الخطأ الجسيم أن تكون رقيقاً معهم صبوراً عليهم ، فواجبك يقتضيك أخذهم بشدة ومعاملتهم بقسوة ، إذ من الإنتحار أن تلاينهم وترحب بهم .

لقد كان « جيته » عالماً أريباً فى هذا الموضوع . « فمن الواجب كل الوجوب — كما يقول — أن تفسد على بعض الأفراد ميلهم إلى أن يهبطوا عليك دون إعلان سابق . إنهم يطالبون الإنسان بالإهتمام بشئونهم . ولاتفيد هذه الزيارات إلا فى إعطائك آراء غريبة على آرائك . وليست لى من حاجة إلى آرائهم هذه . إن لدى الكفاية منها لم أنته منها بعد » . ويقول أيضا : « إن ذلك الذى يريد أن يعمل شيئا للناس يجب عليه أن يحرص على أن لا يأخذونه منه » . إن هؤلاء الناس هم أول اللوم لضحيتهم على

ما أبداه نحوهم من رقة ولطف .. يقول لك الثقلاء : « أنت مخطىء فى خروجك هكذا . إنك تهمل عملك » . ويضيفون : « تعال غدا للعشاء » ! ولكن ينبغى علينا أن نفيد من الدرس ونرفض العشاء .

وإذا اقتحم « ثقيل » الباب على « جيته » بالرغم من تعليماته ، فسرعان ماتفتر عزيمته وتصد نفسه لما يقابله به محدثه من برود وفتور بالغين ، إذ يعقد « جيته » ذراعيه خلف ظهره ويلزم الصمت . فإذا كان الزائر ذا مكانة سعل « جيته » وتمتم : « هيه ... آه ... هيه ! ... » وبغاية السرعة تموت المحادثة . أما الرسائل ، فإنه يقسمها قسمين : تلك التى تطلب شيئا ( ويلقى بها إلى السلة ) وتلك التى تقدم شيئاً . فإذا كانت هذه تعرض أمراً فيه خير له ، ففى هذه الحالة فقط يجيب « إيه ! أيها الشباب ! إنكم لاتعرفون قيمة الوقت ! » .

ويمكن القول إن هذه الأنانية قاسية ، وإنه من الصعوبة بمكان أن يجيب عظماء الرجال على الرسائل . وإننا قد نعثر بين الثقلاء على أفراد جديرين بالإهتمام وبالشفقة بل وبالمحبة . ولقد شكا الكثيرون فى الواقع من «جيته» وتلمسوا فيه شيئا غير إنسانى ، ولكن هذا الشىء غير الإنسانى هو الذى أتاح له أن يترك لنا « فاوست » و « ويلهلم ميستر » . وفى الحقيقة ، إن من يريد أن يكون « لذيذاً شهياً » فإنه سيؤكل ، ويموت قبل أن يؤدى عمله . والإنسان الذى يحب عمله حباً جماً ، ويشعر نحوه بعاطفة جارفة قوية ، لايسأل الآخرين إلا مايمكنهم تقديمه لهذا العمل . إنه لايرفض أى عمل نافع يمكنه عمله جيداً ، ولكنه يهرب من المحادثات ، والإجتماعات وحلقات

السمر والتنادر وأندية المهاترات والتراشق بالعبارات . . وينصح « جيته » بعدم الإهتمام بحوادث العالم وأخباره اليومية إذا لم يكن لنا شأن بها . فحين نضيع كل صباح ساعة فى الاستعلام عن حروب بعيدة ، وساعة أخرى نغتم فيها لما قد ينجم عنها من نتائج ، بينما نحن لسنا وزراء ولا قادة ولا صحفيين ولا شيء بالمرة ، فإننا إذن لا نقدم أية خدمة لبلادنا ، وإنما نحن ننفق مسرفين فى أعز ما نملك وفيما لا يمكن إسترداده : فى حياتنا القصيرة الواحدة .

د — هذا التهذيب فى العمل يذهب به « جتيه » إلى تهذيب إحساساتنا ومشاعرنا . فمن المؤكد أننا لو تركنا أنفسنا دون تحفظ إلى إنفعالات شعورنا ، فستجعلنا فى أغلب الأمر غير قديرين على العمل . وهذه الإنفعالات طبيعية فينا ، ولا يمكن أن ننصح للناس بالتضحية فى كل الظروف بحياتهم الشعورية من أجل عملهم . ولكن يجدر بنا أن نراعى ونلحظ قاعدتين : الأولى ، أن لا ننكص عن عملنا لعواطف جوفاء أو مسرفة ( كمن يفوت على نفسه درجة جامعية من أجل غانية مدلة ! ) ؛ الثانية ، أن نضحى بكل شيء من أجل أعمال معينة لها من الأهمية مايبرز هذه التضحية . تلك هى حال « بروس » الذى وهب حياته لإنجاز قصته ؛ وهى أيضا حال الزعيم أثناء حرب ضروس أو خلال أزمة طاحنة . ولقد تخلى المارشال « جوفر » عن حقه فى رقة الإحساس ، فعذله بعض أصدقائه وأخذوا عليه صرامته ؛ ولكن هذه الصرامة مكنته من استرداد « المارن » ( سبتمبر سنة ١٩١٤ )

هـ — كل كبار رجال الأعمال ، أو أكثرهم هم الذين يعرفون

كيف يستجموا من آن لآخر — فهناك فى دار ريفية ، أو كهف فى الجبل ، أو على ساحل رملى منعزل ، يتحللون من كل القيود والروابط ، حتى روابط الصداقة . فهناك فقط يمكن للحوادث والإنفعالات ، وقد جمعتها لوحة فنية ضخمة ، أن تجد لها مكانا يوائمها . وبين صخب المدن الكبيرة وضجتها يبدو الملهى أو المقال أو الهذر على شىء من الأهمية ، إنها تغتصب مكان العمل والمشاعر الجدية ، أما تحت دورات النجوم البطيئة ، فإن الأمور التافهة نزوار وتستتر فى الظلال حتى تختفى وتتلاشى . وفى سكون الليل وهدوء النفس ، وعلى تلك الأراضى الفسيحة الشاسعة الخالية من كل ما يشوبها ، توضع آساس البناءات الشاهقات الباقيات .. يقول « باريه » : « أيتها الوحدة ، أنت وحدك لم تحقرينى » . أكان ينبغى عليه أن يضيف : أيتها الوحدة ! أنت وحدك لم توهنينى .

## ٢ — المعاونون ، والوكلاء ، والسكرتيرون

تكلمنا حتى الآن عن العامل الذى يختار عمله بنفسه ، ويبقى حراً فى الإحتفاظ به أو تركه ، والذى ينبغى عليه أن يلزم نفسه تهذيباً خاصاً ، لأنه إن لم يفعل فلن يلزمه به أحد . ويجدر بنا الآن أن نتكلم عن أولئك الذين ، وإن لم يكونوا هم أنفسهم رؤساء مسئولين ، فإنهم يعاونون أولئك الرؤساء المسئولين ، مثل مساعد قائد الجيش ، ورئيس هيئة أركان حرب الجيش ، ورئيس المكتب ، والقائم ( أو القائمة ) بأعمال السكرتارية . فلهذه الحرف قواعد وأصول للعمل خاصة بها . والذين يشغلونها إنما يطالبون ، لا بأن يرسموا هم أنفسهم الخطط العظيمة ، ولكن بأن ييسروها لأولئك الذين عليهم تنفيذها . وهذا يتطلب منهم صفات خاصة :

ا ــ التواضع ــ كل شخص يساهم فى عمل تحضيرى مشترك ويعاون رئيسا له يجب أن يكون خلواً من الغرور والـكبر . فإذا كانت له إرادة قوية وكانت خططه وأساليبه تتعارض مع خطط الرئيس وأساليبه ، فإن تنفيذ الأوامر سينقصه دائما ما يؤمنه لأنه سيجاهد ما استطاع الى المجاهدة سبيلا فى أن ينحرف بهذه الأوامر إلى الإتجاه الذى يريده . إنما يجب أن تـكون الثقة فى الرئيس هى الرابطة التى توحد العمل .

ومن الطبيعى أن الإمتثال للأوامر والنزول عليها لاينبغى له أن يصبح ضعة وخنوعا . فرئيس هيئة أركان الحرب ورئيس المـكتب يجب أن يكونا قديرين ، إذا بدا لهما ، إن حقا أو باطلا ، أن رئيسهما قد إرتكب خطأ جسيما ، على أن ينبهاه له بكل شجاعة . ولـكن هذا النوع من التعاون لا يكون مجديا ذا أثر فعال إلا اذا كان ، وراء هذه الصراحة والإخلاص ، إعجاب حقيق وإنكار للذات دائم . فإذا لم يعترف المساعد بأن رئيسه أكثر منه خبرة وأصدق حكما ، فإنه لن يحسن القيام بمعاونته . فإنتقاد المرءوس لرئيسه يجب أن يكون عارضا وليس عادة .

ولقد روى « المـارشال بيتان » أنه عند ما كانوا يقترحون عليه أثناء الحرب ، ضابطا جديداً لهيئة أركان الحرب ، كان يخرج به إلى ميدان فسيح ، وبعد أن يوحى بوجود قرى ومدن ، يقترح خطة فنية عسكرية ، ثم يبين بنفسه كيف يمكن إفسادها . فإذا أقر الضابط كل آرائه ، وظهر أنه كما يقولون فى الولايات المتحدة ( A yes man ) ( الرجل الذى يقول دائما نعم ) ، أعاده المارشال واستغنى عنه ؛ أما على العكس لو أنه وجد

بالمرءوس قد نقد، باحترام ولكن بشدة، آراء الرئيس العظيم، إمتدحه هذا واصطفاه. ويضيف المارشال على هذا: «ومن سوء الحظ أن علم بهذا كل الجيش، فما أكاد أفتح فمي بكلمة حتى يصيح أصغر ملازم بشدة: «لا ياسيدي المارشال!» كان لابد من أن أنفجر يوما من الغضب على أحدهم فأغيبه في باطن الأرض... وكانت هذه نهاية التجربة».

فماذا ينبغي للمرءوس أن يفعل، إذا كان واثقاً من أنه على حق وكان رئيسه يأبى أن يحسب لانتقاداته حسابا؟ كمبدأ، يجب على الموظف أو الضابط، مع احتفاظه بآرائه، أن ينفذ الأوامر. فإذا كان الأمر من الخطورة إلى حد أنه قد يعرض للخطر مستقبل البلد أو الجيش أو أحد المشروعات الكبيرة، فما زال أمامه سبيل الاستقالة. انما عليه أن لايلجأ الى هذه السبيل إلا في آخر لحظة؛ فما دام يعتقد أن في بقائه نفعاً فعليه أن يبقى.

وأحياناً قد يكفي التهديد بالإستقالة، ولكنه سلاح يثلم من الإستعمال. عندما كان المارشال «ليوتي» ضابطاً شاباً، ألفى نفسه في أول الأمر تحت إمرة «الكولونيل جاليني» فعلمه هذا فن الإستقالة. فكلما رفض الحاكم العام للهند الصينية طلباً للكولونيل جاليني سارع هذا بتقديم استقالته؛ ولما كانوا في حاجة إليه فلم تكن الاستقالة تقبل، وإنما كانوا يعملون على إرضائه. ولما ذهب ليوتي فيما بعد إلى مدغشقر، وكان جاليني هو رئيسه الأعلى، نشب خلاف يوماً بين الرجلين، فبعث ليوتي باستقالته الى جاليني. وبعد أيام أعيدت الإستقالة اليه وعلى هامشها الملحوظة الآتية: «آه! لا! (مش على!) — جاليني».

ب ـ اللباقة: على الضابط أو رئيس المكتب أو السكرتيرة أن يألفوا أسلوب رئيسهم في التفكير وطريقته في العمل. فأحيانا يعبر هذا عن مقاصده بألفاظ غامضة وتمتمات مبهمة، فعليهم ترجمتها. فهكذا كان ينقل «فيجان» أوامر «فوش». وأحيانا لا تكون آراء الرئيس سوى تعليمات مقتضبة وأوامر موجزة، ومضات كومضات البرق تضيء لحظة ثم يعم الظلام، فعلى معاونه أن يستخلص من هذه الأوامر العامة تعليمات مفصلة. فهكذا كان «المارشال برتييه» (١٧٥٣ — ١٨١٥) يترجم آراء الإمبراطور إلى حركات الجيوش. وإذا كان الرئيس من أصحاب الأمزجة المتقلبة والطبائع الثائرة، فعلى الضابط المساعد (أو رئيس المكتب) أن يلاطف ويهدىء من جأش أولئك الذين لحقتهم منه إهانة أو تحقير، أو أن يبين للزائرين، فيما بينه وبينهم، الموضوعات التي يطيب له تجنبها وعدم طرقها.

كنت خلال الحرب أعمل كمترجم مع قائد انجليزي إشتهر بمقدرته على التنظيم. وكان شجاعاً جريء القلب، ولكنه كان سوداوي المزاج عبوس الطباع وعلى خلق غليظ شديد، حتى لقبه ضباطه «بالجنرال الأسود». ولخدمة خاصة غير عادية (ولأنني فرنسي)، لم أسلم من غضبه فحسب، ولكنه كان يعاملني بمودة وعطف، وكان يدعوني كل يوم لتناول الشاي معه منفردين. واستطعت في هذه الجلسات وخلال محادثاتنا الودية أن أتبسط معه في الكلام وأطرق كل حديث حتى وجدتني، أنا الغريب، محملا برسالات عديدة من الضباط البريطانيين، الذين كانوا يودون، لصالح العمل أو لنفعهم الخاص، أن يقفوا «الجنرال الأسود» على بعض أمور وحقائق كان سيرفض الإصغاء إليها لو أنهم سعوا إلى التخاطب معه بأنفسهم في شأنها. وعندئذ تفكرت في

الخدمات التى يمكن للإنسان أن يسديها للأفراد وللعمل معاً عندما يكون حائزاً لثقة شخص قادر ذى سلطان.

إن هوس الرجل العظيم يجب أن يحترم ويغتفر ، إذ أن الوقت الذى نضيعه فى مكافحته ومناهضته عزيز ثمين. فالحياة بين الموظف ورئيسه تتصل أسبابها بنوع من المشاركة والتضامن شبيه بتضامن الأعضاء المختلفة فى الجسم الحى (التعايش) إن المرءوس الأريب والمعاون الحصيف يعرف الألفاظ التى يجب عليه أن لا يلفظها لأنها توقظ عقداً نفسية خبيثة فى نفس الرئيس العظيم فتؤلمه وتثير سخطه وغضبه. إنه يعرف كيف يقدم الموضوعات التى تسر الرئيس وتهمه ويبدى فيها رأياً حسناً موافقاً. إنه يرى تماما الجهالات والسقطات والنقائص التى تشين رئيسه فلا يقلل لأجلها من إحترامه له ، بل يسعى إلى تلافيها ما وسعه السعى.

حـ — الحرص والكتمان — إن العمل فى ظل رئيس مسئول يغمس شباناً لم يعتادوا بعد على تحمل مسئوليات السلطان والحكم فى أمور تتخذ فيها أحكام وقرارات جسام. لهذا الظرف الشاذ يلزم «كتمان السر». وها هنا قاعدة لاتسمح بالإستثناء. فالشباب (ذكورا كانوا أم إناثا) زهواً منهم وعجبا باشتراكهم فى الأعمال العظيمة، قد يغرهم أن يتباهوا بسرد القصص أو النوادر. ولكن واجبهم يقتضيهم الصمت المطبق. فلا حد للشر الذى قد ينجم عن التهور واللجاجة فى الحديث. بينما من ناحية أخرى سيجدون فى الحرص والكتمان لذة ومتعة شديدتين. فلا شىء ألذ وأبهج من أن تكون وسط حلقة من الأسرار ، تعرف الحقيقة ، وتكشف الزيف ، ولا تفشى

شيئا من كل ذلك . . فبهذا كانت «مدام ريكامييه» عظيمة خليقة بالإعجاب . فقد مر عليها حين من الدهر كانت موضع سر وثقة زعماء أحزاب متخاصمة ، ورجلين يتنازعان منصباً واحداً ، ومؤلف ونقاده · كانت تنصت ، وتهدىء ، وتبتسم ، وتصل بين الطرفين إذا لزم الأمر ؛ ولكنها لم تخن أحداً ولم تغدر بأحد أبداً . إنه دور مقصور على بعض إجابات موجزة ، ولكنه دور نافع جميل ، وقد أدته أحسن أداء .

ى — الكفاءة — لا يجب على المساعد أن يبحث عما يطلب منه فحسب ، وإنما عما يمكن أن يطلب منه . إنه يلمح الإتجاه الذى تتخذه أفكار رئيسه . إنه يمهد الطريق ويعبده · إنه يقصى المشاغل غير النافعة ، ويسوى بنفسه الشئون البسيطة ، ويسهل الأعمال الضرورية التافهة التى تزحم الحياة . إن أحسن مثال للمساعد هى السكرتيرة الكاملة . إن عمل السكرتيرة لا يقتصر فقط على أخذ ملاحظات تملى عليها ، وعلى رسالات ( تدقها ) على الآلة الكاتبة . إنما عليها أن تصنف الأعمال التى تقوم بها وترتبها : الخطابات الصادرة والواردة ، ومعرفة العنوانات وأن تصبح كقائمة أو دليل حى . يجب أن تكون لها كل فضائل رئيس المكتب ، وتزيد عليها فضائل المرأة . فهى كامرأة تفهم الكلام الموجز المبتور ، وتخفف من الأثرة وحب الذات وتشيع فى المكتب جواً من العذوبة والرقة . ولكن لا يجب عليها فى نفس الوقت أن تكثر من أنوثتها ، فإن اليوم الذى يعى فيه الرئيس أنوثتها وعياً كثيراً ، سيعانى فيه العمل عناء كثيراً . والموازنة عسيرة ، ولكنها ليست مستحيلة .

## ٣ ــ العمل اليدوى والعمل العقلى

كان العمل فى الأيام الخالية يعد عيباً عند الناس يستحيون منه، وعقابا إلهيا يحل بهم . «ستأكل خبزك بعرق جبينك» . وكانت الأعمال اليدوية تترك للعبيد ، وكذا قسم كبير من الأعمال العقلية . وفى روما كان معلم قواعد اللغة والحساب من العبيد . وشاء فيما بعد ، بعض العلماء النظريين تقسيم الناس إلى الطبقة العاملة ( برولتير ) ( Prolétaires ) والطبقة الميسورة ( البورجوازى ) ( Bourgoisie ) ، فالطبقة العاملة هم الأجراء الذين يأخذون أجراً ، والميسورون هم من يعيشون من دخلهم أو مما يربحون . ولكن هذا التمييز مشوش غير دقيق . فهو يجعل مدير البنك ، الذى يتقاضى مرتباً سنوياً قدره مائتا ألف فرنك ، من الطبقة العاملة ؛ ويجعل من الطبقة الميسورة ، التاجر البسيط أو المالك لقطعة أرض لا يكتسب منها عشرة آلاف فرنك إلا بشق الأنفس .

ولقد أتى « ألن » بتعريف ، أعتقد أنه ، إن لم يكن دقيقاً كل الدقة ، فهو على الأقل أعمق وأخصب . فقد سمى الطبقة العاملة ( برولتير ) كل أولئك الذين يعيشون من عملهم ، سواء كان هذا العمل يدوياً أو عقلياً ، حراً أو بأجر . وسمى ميسورين ( بورجوا ) كل الذين يتعيشون من أقوالهم وكلامهم . فالمحامى والنائب الشيوعى و « دلال » المصرف ، والسائل يعدون عنده من الطبقة الميسورة لأنهم جميعاً يكسبون أقواتهم من إقناعهم الغير بكفاءتهم . أما البناء ، والميكانيكى ، والمهندس ، والكاتب القدير فهم من الطبقة العاملة لأنهم ليسوا

فى حاجة إلى الإقناع ؛ فجودة عملهم تـكفى لرواجه . ورجل الصناعة العظيم يحسب من الطبقة العاملة إذا كانت ثروته لاترجع إلى خبرته الفنية ؛ وهو من الطبقة الميسورة إذا كانت خفة روحه وذوو قرباه قد ألحقوه بدواوين الحـكومة !.

ومن هنا ( يقول ألن ) وجدت عقليتان مختلفتان كل الإختلاف . فالعامل الذى يعمل فى الطبيعة لتحويلها وتحويرها ليس فى حاجة لأن يرضى ويسر ، ولـكن ليخضع ويقهر . وهو لهذا خشن فظ ؛ إنه يحتقر الـكياسة ولين المعاملة ؛ وهو يلبس ثيابه ليس تبعاً للزى الحديث ، وإنما تبعاً لمقتضيات عمله . أما الميسور عند ألن فلطيف محبوب إنه يبحث عن قول مايمكن أن يروق ويرضى أولئك الذين يكفلون له العيش : الناخبين ، أو النظارة ، أو الأصدقاء والرفاق . ويرتدى ثيابه بطريقة تسر الناظرين .. وفى قصيدة بديعة ، بين « كبلنج » الفرق الغريب البعيد بينماينتجه « أبناء مارتا » الذين يصنعون الأشياء ، ويقيمون الجسور ، ويرصفون الطرق ، ويقودون الطائرات ويسوقون القطر ، وما ينتجه « أبناء ماريا » المضجعين فى رخاوة وليونة على وسائد عرباتهم الفاخرة نائمين ناعمين بعمل الآخرين .

إن كل تقسيم للإنسانية إلى قسمين ، أو كما يقولون أيضاً ، إلى « طبقتين » هو تقسيم خطير ، أو باختصار تقسيم مصطنع غير طبيعى . فهذا أحد أبناء الطبقة الميسورة له أذواق وسجايا إبن الطبقة العاملة الذى لا تسعده إلا الحياة فى صحبة المحركات الآلية . وهذا المهندس هو إبن ماريا عندما يرحل للترفيه عن نفسه ، وهو إبن مارتا حين يكون فى مصنعه . ولـكن الحقيقة كذلك

أن بعض الأفراد بعيدون عن مزاولة الأعمال الشاقة العنيفة ، بينما تقوم عليها الحياة اليومية للآخرين ، ومن هذا تتولد الأحقاد والضغائن البالغة . فهل من الممكن علاج شر قديم قدم البشرية ؟ لقد فشلت فى هذا الثورات دائماً . وستفشل فيه دائما لأنها تهمل الإنسان الأزلى والعقيدة الحقة عن الخطيئة الأصلية .

ولكن من الممكن أن تقدم الآلات ، بعد أن جعل حياة العامل أشد نصباً وأكثر مللا ، ينتهى على العكس بتقريبه من حياة الطبقة الميسورة . فلقد خفضت مدة العمل ، فى قرن ، إلى حوالى الثلث . كما تترك الأعمال التى تحتاج إلى قوة وبأس شديدين ، وستترك أكثر فأكثر ، إلى الآلات . حقاً إن الآلات قد عطلت عمل الصانع الفنى الذى يتطلب ذكاء ومهارة لتستبدل به ذلك العمل الممل المتسلسل ، ولكن هذه حالة إنتقال . وسيجىء يوم يتولى « الإنسان الآلى » القيام بهذه السلسلة من الأعمال . وسيصبح العامل ، الذى قبل أن يقوم بغير المراقبة ، مهندسا .

وفى هذه الدراسة ، نجد أن المسألة المهمة ، فى موضوع العمل اليدوى هى : كيفما كان العمل ، وضيعاً أو رفيعاً ، فإنه يمكن أن يحسن القيام به أو يساء . فهناك طريقة بارعة جميلة لحفر أساس جدار فى الأرض ، وطريقة خرقاء قبيحة لحفره ؛ كما أن المحاضر قد يعد محاضرته بحماسة واعتناء ، وقد يعدها بإهمال وفتور . والكاتبة على الآلة الكاتبة يمكنها أن تكتب نسخة عادية بين بين ، أو نسخة جيدة جديرة بالإعجاب : وهذا يتوقف على ضربها على الحروف ، وعنايتها بآلتها ، واتساق العناوين ، وأناقة الصفحة ، واهتمامها

بإعادة تلاوتها . إنها لو وضعت نصب عينيها أن تجعل أداءها لعملها أفضل قليلا من الأداء الضرورى ، لأصبحت متفننة ذات ذوق جميل ، ولرأت جزاءها عما أدت دون مقابل فى سعادة باقية قوية . فإن هذا العمل النفل الإضافى ، لم تؤده من أجل الرئيس ؛ وإنما من أجل نفسها ، من أجل الفخر ، من أجل الترف ، فهى إذن أدته حرة مختارة . وكل عمل يؤدى عن إرادة ورغبة ، يدع لصاحبه نصيباً من الحرية .

إن لذة العمل قد تصبح من الكمال إلى حد أن تطغى على كل لذة عداها . وإنى حين أحاول تخيل الجنة ، لا أستطيع تصورها مكاناً « لفراغ أبدى » ، حيث الأرواح المجنحة المتعطلة تغنى وهى تلعب على أوتار العود ، وإنما كمكتب للعمل ، حيث سأشتغل إلى الأبد فى وضع قصة رائعة ، لا نهاية لها ، بهذه القوة الدافقة ، وهذه الثقة التى لم أعرفها فى الأرض إلا لدقائق نادرة معدودة . إن جنة البستانى حديقة ، وجنة النجار هى المائدة التى يشتغل عليها . .

تدبير المنزل . — من الأمثلة الطيبة لاتحاد العمل اليدوى والعمل العقلى ، تدبير البيت ، إذا أدته المرأة بمحبة وعناية . والمرأة التى تحسن إدارة بيتها ، هى فى وقت واحد حاكمة ومحكومة . إنها تدرك ، وتنفذ عادة بنفسها ما أدركته . إنها هى التى تجعل العمل ممكناً لزوجها ولأولادها ؛ فهى تكفيهم المتاعب ، وتهيء غذاءهم ، وتعنى بأمرهم . إنها وزيرة المالية ، وبفضلها أمكن موازنة ميزانية المنزل . إنها وزيرة الفنون الجميلة ، وبفضلها أضحى للبيت ماله من حسن وبهاء . إنها وزيرة معارف الأسرة ، وبفضلها التحق الأولاد بالمدارس الفنية ، وتلقت البنات ثقافتهن .

ويحق للمرأة أن تزهو بنجاحها فى جعل بيتها عالماً صغيراً كاملا ، بقدر ما يزهو الزعيم الكبير بتنظيمه بلداً . فإن مسألة الدرجات ، كما يقول المارشال ليوتى قولا حقا ، ليست لها أية أهمية . فما هو كامل فهو كامل ، كيفما كانت أبعاده .

وتدبير المنزل من أشق الأعمال عند النساء ، فيما خلا الطبقات الواسعة الثراء ، وليس فيه راحة لهن . والأسبوع الذى يأتى فيه يوما أحد ( أى المستحيل ) ، هو عندهن الأسبوع الذى يستطعن فيه ، بعد عملهن فى المشغل ، أن يكرسن يومين لترتيب المنزل ، وللغسيل ، وللإصلاح ، وللأطفال . . . ولابد من أن تجد دائما عند كل أسرة شيئا هاما ملحاً يجب عمله دون إبطاء . ولتضف إلى ذلك إنشغال المرأة وعناءها فى أن لاتبدو قبيحة ، وفى أن تتأنق فى ملبسها ، وفى أن تتثقف . . حقيقة أن مهنة المرأة ، إن أتقنت القيام بها ، لا تترك لها إلا القليل من وقت الفراغ ، ولكنها أيضا إحدى المهن التى يؤتى فيها العمل أجره وجزاءه مباشرة وفى التو . فلا أجمل وأبهر من أن ترى ، فى أيام معدودات ، كيف أن امرأة حقة ، بمال يسير وقلب كبير ، تحول كوخا إلى فردوس . فهنا نقطة تقاطع فن العمل وفن الحب .

## ٤ — عمل التلميذ

من الطبيعى أن يوجد فن للتعليم . ومهنة التدريس مهنة صعبة شاقة ، تتطلب خبرة ومرانا طويلين . وقد شعر كل منا بذلك منذ بدا له أن يجعل نفسه مدرسا لأطفاله . . وندر أن يكون الأب مدرسا مجيدا ، فتارة يظن فى نفسه معرفة للأشياء ، وهو فى حقيقة الأمر لا يعرفها إلا معرفة سطحية ؛

وتارة هو يعرفها ولكنه يسيء شرحها ؛ وتارة ثالثة هو فاقد الصبر قاس لأن الدرس يضجره ؛ وتارة أخرى هو متساهل معهم رؤوف بهم إلى حد خطير لأن حبه لأطفاله أقوى من أن يجرى حكمه فيهم. فعند أولئك الذين اتخذوا من التعليم مهنة لهم والذين وفقوا فى هذا الفن ، يجب علينا أن نلتمس قواعده .

ا — التعليم بدون تهذيب . — إن عمل التلميذ الأول هو أن يتعلم العمل . فقبل أن تكون عقلا ، يجب أن تكون إرادة . وهذا هو السبب الذى من أجله كان التعليم فى المنزل لا يجدى كثيراً . فالأسرة تلتمس دائماً المعاذير : إن رأس الطفل يوجعه ؛ إنه لم ينم جيداً ؛ إنه مدعو إلى حفل . لقد كان الممتحن متعنتاً متعسفاً ، فالمسألة قد أسيء وضعها . . . أما المدرسة فلا رحمة لها . وهذه هى ميزتها وفضيلتها . بل إننى لأذهب إلى تفضيل النظام الداخلى القديم . وللنظام الداخلى مساوئه ومتاعبه ، فهو أحيانا يضير الأخلاق ، وهو دائما شديد صارم ؛ ولكنه يخلق رجالا . ان الأطفال فيه يتعلمون كيف يبحثون بأنفسهم عن مكانهم فى الجماعة، أما بين أسرتهم فإنهم يجدون هذا المكان معداً لهم . وهذا تيسير ولين كثير . وإذا كان الأبوان عاقلين أريبين ، ويأخذان أولادهما بشدة فقد ينتج النظام الخارجى نتائج طيبة حتى سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة . أما بين السابعة عشرة والعشرين فإن الحياة الحرة الطليقة فى مدينة كبيرة تسيء الى الأولاد وتضر بهم إساءة وضرراً عظيمين .

ب — التعليم ليس تسلية . — إن الغرض من التعليم هو أن يقيم فى العقل إطارا من المعارف الأولية وأن يرفع الطفل الى مستوى رجال عصره . ثم تجيء فيما بعد وعلى مر الحياة الحقائق التى يتعلمها من تجاربه واكتشافاته فتأخذ

مكانها فى هذا الإطار . و كل محاولة لقلب هذا النظام الطبيعى ، ولاجتذاب عقل الطفل بتشويقه وإغرائه بمستحدثات الحياة الحديثة وملاهيها ، محاولة خاطئة باطلة . فالوسائل التى يتوسلون بها فى التعليم كالصور ، والراديو ، والسينما ، هى وسائل غير كافية فى ذاتها وغير ذات أثر ؛ ولا يمكن إقرارها إلا إذا أصبحت ( وهذا ممكن ) سبباً لمجهود أو حماسة . فكل مايتعلم بغير كدوتعب ، ينسى سريعا . ولنفس السبب كانت المحاضرات ، التى لاتقتضى من التلاميذ أية مشاركة شخصية ، غير مجدية فى الأغلب . فالبلاغة فى الإلقاء تنزلق على هذه العقول الصغيرة . والإصغاء ليس عملاً (وهذا بالطبع لاينطبق على تعليم اللغات الحية التى يجب على العكس أن تعلم بالإستماع . )

حـ — من المفيد جداً أن تفرض على التلاميذ إمتحانات وإختبارات :

نرى من وقت لآخر بعض الآباء ورجال التعليم يطالبون بالغاء (البكالوريا ) . . إنهم مخطئون . فبدون تنافس ولاجزاء لن يكون العمل جدياً أبداً ، وللسبب ذاته كان من الحمق إلغاء المسابقات العامة السنوية لطلبة المدارس الثانوية ، التى أعيد إقامتها من حسن الحظ ، والتى هى إحدى الوسائل القوية لإعطاء التلاميذ النابهين مايستحقونه من طيب السمعة فى فرقهم .

ى — التعليم الأكثر أهمية هو تعليم المبادىء الأولية : يميل الآباء إلى عدم تعليق أهمية كافية على الفصول الأولية . فهم يقولون : « إن عمل ولدى ردىء ، ولكن ماهو إلا طفل صغير ؛ إنه لم يعد السابعة بعد » . والحقيقة أن كل شىء إنما يتوقف على عدد زهيد من المناهج يتعلمه الطفل تعلما جيداً . فمعرفته القراءة والكتابة والحساب معرفة كاملة ستغدو

فيما بعد شيئاً عظيما . وأغلبية الناس لم تحصل هذه المعارف الأولية . فكثير منهم يقرأ قراءة رديئة ، وبصعوبة ، ودون أن تثير الكلمة عندهم الفكرة التى تشير إليها . والرياضيات إما شاقة عسيرة أو سهلة يسيرة بحسب ماتعلمه الإنسان من مبادئها تعليما رديئاً أو جيداً . وأنه لمن المستحيل على من لا يعرف تماما مبادىء علم الهندسة وأصول علم الجبر أن يفهم شيئا مما يلى هذه المبادىء و الأصول .

هـ — إن تعليم قدر يسير من الأشياء تعليما كاملا أفضل من تعليم قدر كبير من المواد تعليما وسطا : من العبث كل العبث شحن البرامج وحشوها . فليس الغرض من التعليم تكوين علماء فنيين ، وإنما تكوين « عقول طيبة » . وحسبنا لهذا بعض التعاليم . « فيتعلم الإنسان على الخصوص اللغة اللاتينية والهندسة » . كما قال نابليون . ولتزد عليها قليلا من التاريخ ، وقليلا من الطبيعة ، وبالطبع كثيراً من اللغة الفرنسية . فى هذا الكفاية . وليس مايهم فى التاريخ والعلوم هو أن يعرف التلميذ أحدث الإكتشافات وأجد النظريات ، وإنما أن يفهم المنهج التاريخى والمنهج العلمى . إن الأعمال البسيطة نسبياً للعلماء الأوائل لأوضح عنده وأجدى من التحقيقات التفصيلية الدقيقة لعلماء الطبيعة المحدثين . . كما كتب « ألن » أيضا محتماً أن يكون التعليم متأخراً .

## ٥ — فن القراءة

هل القراءة عمل ؟ لقد دعاها « فاليرى لاربو » ( Valéry Larbaud ) « رذيلة بلا عقوبة » بينما يقول « ديكارت » على العكس إنها « محادثة

مع أكرم وأحصف رجال العصور الغابرة » . وكلا الرجلين مصيب .

« فالمطالعة الرذيلة » خاصة بأولئك الذين يجدون فيها نوعا من المخدر ويفلتون بها من عالم الواقع بأن يغرقوا أنفسهم فى عالم الخيال .. هؤلاء لا يقدرون على البقاء دقيقة من غير قراءة ؛ وكل شيء لديهم حسن ؛ إنهم يفتحون معجما كيفما اتفق ويقرأون فيه مقالا عن فن الرسم بالألوان المائية بنفس النهم الذى يقرأون به كلمة عن آلات الحريق . وإذا تركوا وحدهم فى غرفة اتجهوا توا إلى المائدة حيث يعثرون على بعض المجلات أو الجرائد فيهجمون على عمود من منتصفه ، بدلا من أن يخلوا لحظة لأفكارهم الخاصة . إنهم لا يبحثون فى القراءة عن أفكار ولا عن حقائق ، وإنما عن ذلك الممر الدائم من الكلمات التى تستر عنهم العالم وتحجب روحهم . وهم يخرجون مما قرأوه بالقليل من اللباب النافع والجوهر المفيد ؛ وهم لا يرتبون أبداً مصادر معلوماتهم تبعاً لقيمتها ، فكلها لديهم سواء . وقراءتهم سلبية تماما : فهم يخضعون للنصوص ، ولا يشرحونها ، ولا يفسحون لها مكانا فى عقولهم ، ولا يستطيعون إستيعابها وتمثيلها .

ثم « المطالعة للذة » وهى أكثر إيجاباً : فيقرأ للذته ، ذلك المولع بالقصص الذى يلتمس فى الكتب أحاسيس الجمال وآثاره ، أو يقظة مشاعره وسمو وجدانه ، أو مغامرات ضنت بها عليه حياته . ويقرأ للذته ذلك الذى يود أن يجد عند الأخلاقيين والشعراء ، تلك المشاهدات التى شاهدها هو بنفسه ، أو تلك الإحساسات التى أحسها هو بنفسه ، وقد وضحت أحسن توضيح وفصلت أحسن تفصيل . ويقرأ للذته أخيراً ذلك الذى يسره

ويلذ له أن يحقق تماثل آلام البشرية وتشابهها فى كل الأجيال والعصور، دون أن يدرس عصراً معينا من عصور التاريخ . إن « مطالعة اللذة » هذه سليمة صحيحة .

وأخيراً « مطالعة العمل » وهى مطالعة الرجل الذى يبحث ، فى كتاب ، عن معارف معينة ، أو مواد هو فى حاجة إليها ليدعم بها أو ينجز فى عقله بناء قد عنت له خطوطه الرئيسية . ويجب فى مطالعة العمل أن يكون القلم فى يد المطالع أللهم إلا إذا كانت له ذاكرة مدهشة نادرة . فإنه يكون عبثا ما نقرأه إذا كان علينا أن نعيد قراءته كلما أردنا الرجوع إلى الموضوع . وإذا أبيح لى أن أضرب مثلا بنفسى ، فإنى حين أقرأ كتاب تاريخ أو أى كتاب جدى ، فإنى أدون دائما على الصفحة الأولى أو الأخيرة بعض الكلمات التى تبين الموضوعات الرئيسية التى بحثت فى الكتاب ، ثم أكتب تحت كل كلمة من هذه الكلمات أرقام الصفحات التى تشير إلى المواضع التى قد أرغب فى الرجوع إليها عند الحاجة ، فلا إضطر إلى إعادة قراءة الكتاب جميعاً .

* * *

والمطالعة ، ككل عمل ، لها قواعدها . ولنبين بعض هذه القواعد : فأولا من الأفضل أن تعرف بعض الكتاب وبعض الموضوعات معرفة تامة ، من أن تلم إلماماً عابراً بعدد كبير من الكتاب . إن جمال المؤلف ومحاسنه تبدو رديئة عادة عند القراءة الأولى . وحتم عليك فى شبابك ، أن تطوف بين الكتب ، كما تطوف فى الدنيا باحثا فيها عن أصدقاء لك . ولكن هؤلاء الأصدقاء الذين تعثر عليهم ، وتختارهم ، وتحبهم ، إنما

ينبغى عليك أن تعاشرهم . وحسبك فى حياتك أن تكون صديقا وعشيراً لمونتانى ، أو سان سيمون ، أو رتز ، أو بلزاك ، أو بروس .

القاعدة الثانية ، هى أن تحتفظ فى مطالعاتك بمكان فسيح للنصوص العظيمة . ولاشك فى أنه من الضرورى بقدر ماهو من الطبيعى أن يهتم الإنسان بالكتاب المعاصرين ، فبينهم تتيح لنا الفرصة العثور على أصدقاء لهم نفس مالنا من متاعب وهموم وحاجات . ولكن يجب أن لانترك أنفسنا لتغمرنا لجة الكتب الصغيرة ، غير أن عدد المؤلفات الرئيسية العظيمة من الجسامة إلى حد أننا لن نحيط به جميعا أبداً. فلنثق إذاً بما اختارته الأزمنة . فالإنسان قد يخدع ، والجيل من الناس قد يخدع ، ولكن البشرية لا تخدع . فلا ريب فى أن هوميروس ، وتاسيت ، وشاكسبير ، وموليير خليقون بمجدهم وعظمتهم ، فنحن نميزهم ونفضلهم على من لم يخضع لابتلاء الزمان وامتحانه .

الثالثة هى أن تحسن إختيار غذائك ؛ فلكل عقل مايوافقه من أنواع الغذاء الخاصة به . فلنتعلم معرفة « كتابنا » . إنهم يختلفون كل الإختلاف عن كتاب أصدقائنا . ففى الأدب ، كما فى الحب ، يدهش الإنسان لإختيار الآخرين . ولنكن مخلصين أوفيــاء إلى ما يوافقنا ، ونحن فى هـذا خير الحاكمين .

القاعدة الرابعة ، هى أن نحيط مطالعاتنا ، كلما أمكن ذلك : بجو من التأمل والهدوء والتبجيل الذى يسود حفلا موسيقيا جميلا ، أو يغشى المحافل الرسمية والطقوس الدينية . فليست قراءة أن تطالع صفحة ، ثم تقطعها

لتستجيب إلى دقات المسرة ، ثم تتداول الكتاب ثانية بينما فكرك فى مكان آخر ، ثم تتركه أخيرا إلى اليوم التالى . إن القارىء الحق يدبر الليالى الطوال التى لا يشغله فيها شاغل ؛ إنه يحتفظ لهذا الكاتب المحبوب ببعد ظهر يوم الأحد من أيام الشتاء ، إنه شاكر لرحلاته وأسفاره أن منحته الفرصة ليعيد ، على دفعة واحدة ، تلاوة قصة لبلزاك أو لستندال أو مذكرات كاتب بعد موته . إنه ليستشعر لذة قوية فى أن يعثر على هذه العبارة أو تلك الفقرة التى يحبها ، كما يترقب المولع بالموسيقا لحن « الساحر » فى مقطوعة « بتروكا » لستروفينسكى .

واخيرا القاعدة الخامسة وهى أن تجعل نفسك أهلا للمؤلفات العظيمة وموائما لها ، ففى المطالعة كما فى الفنادق الأسبانية وكما فى الحب : لا يجد الإنسان إلا مايحمله هو . فتصوير العواطف لايروق إلا أولئك الذين ذاقوها وتمرسوها ، أو أولئك الذين مازالوا شبابا ينتظرون تفتحها بأمل وألم . فلا شىء يثير النفس ويهز المشاعر أكثر من أن ترى شابا حدثا كان ، حتى العام السابق ، لا يطيق إلا أقاصيص المغامرات ، قد تملكه ميل شديد ونزعة عنيفة إلى قراءة « أنا كارنين » أو « دومينيكا » ، لأنه يعلم منذ الآن ماهو نعيم الحب وآلامه . ورجال الأعمال الكبار قراء مجيدون لكبلنج ، والزعماء العظام لتاسيت أورتز . لقد كان مشهدا جميلا أن ترى المارشال ليوتى ، غداة انتزعت منه إحدى الحكومات الجائرة مراكش ، يشرع فى قراءة قصة البطل الرومانى « كوريولان » لشكسبير . إن فن القراءة هو ، إلى حد كبير ، فن الإهتداء إلى الحياة فى الكتب ، وفهمها خير فهم بفضلها .

## ٦ — عمل الفنان

إن عمل الفنان يشبه عمل الصانع ويختلف عنه فى وقت معا . فهو يشابه عمل الصانع فى أنه يتطلب مهارة فنية . ولا تكتسب هذه المهارة إلا بدراسة أرباب الصناعة وبالممارسة الطويلة . وبالطبع لابد من الموهبة ( موزار ، وبايرون ، وهيجو ، وشاتوبريان . ) ولكنه من المهم أن نفهم أن الموهبة إذا تركت وشأنها ، ستظل عقيمة . . لقد رأيت عمل « فاليرى » ؛ ودرست مخطوطات « بروس » . إنها ليست إلا أبحاث بحثت بصبر وأناة . وتنقيحات مستمرة دائبة ، ومجهودات لإيجاد ، سواء اللفظ الذى يعبر بالضبط عن الفكرة ، أو اللفظ « الوحيد » الذى يمكن ، لدواع خفية يتطلبها الإتساق والتناسق أن يقبل فى هذا الموضع . كما أن كتابة قطعة موسيقية تقتضى تعليماً موسيقيا معقدا لا يمكن أن يكتسبه ، من أوتى ذكاء ونبوغا ، إلا بعمل طويل دقيق فهناك نصيب من الرياضة والمران فى أسمى الفنون وأكثرها تلقائية .

ومن الطبيعى ، بعد هذه الدراسات الطويلة ، أن يكتسب الفنان خبرة ، ووثوقاً فى الكتابة والأسلوب يبيحان له ، فى أوقات معينة وحين يتبين تماما ما يريد تصويره ، أن يصوره بخفة وتوفيق سريع ، يبدوان ، للبعيد عن الفن ، عملا عجيبا معجزا لقد سخر « ويسلر » ( Whistler ) من أولئك الذين عابوا عليه رسمه إحدى صوره الفنية فى ساعة واحدة . إنه استطاع رسمها فى ساعة لأنه إنما رسمها من قبل طوال حياته . .

ولكن إكتساب هذه المهارة الفنية ، وهى العمل الأساسى للصانع ،

ليس سوى جزء من عمل الفنان . ويقول فاليرى «إن القصيدة لا تنظم بانفعالات ، ولكن بكلمات » ، والحقيقة أنه لابد من وجود الإثنين . فحينما يكون القصد هو الفن ، يجب الرجوع دائما إلى تلك الفكرة القوية ، فكرة النظام ، فكرة الشكل أو الصياغة التى تفرض على الطبيعة . فالشكل ضرورى لا منتدح عنه . ولكن الشكل الكامل الذى لا يتضمن شيئا قلما يثير النفس أو يؤثر فيها . فسينفونيات بيتهوفن من حيث الشكل والصياغة آيات بينات رائعات . ولكن فى هذه الأشكال قد صبت روح بتهوفن ، وأفكاره ، وخواطره ، وآلامه ، ومسراته . ولقد بلغ « راسين » الكمال من ناحية الشكل ، ولكن من سيكون هو بغير عواطف راسين ؟

يجب إذن أن يعيش الفنان ، أو بالأحرى أن يكون قد عاش ، خارج عمله الفنى ( وبهذا هو يختلف عن الصانع . ) . « فالشعر إنفعال يتذكره الشاعر فى أوقات هدوئه وسكينته » . فنرى إذن أن حياة الفنان ينبغى أن تكون من ثلاثة أقسام على الأقل : قسم الحياة الإنسانية ، الحسية ، الوجدانية وهى وحدها التى تعلم الشاعر معرفة الانسان ؛ وقسم للتأمل ، وأحلام العزلة وهو اجسها ( فالفنان مجتر لا ينى يجتر ماضيه ليهضمه ويحوله إلى مادة فنية ) ؛ وأخيراً قسم للعمل الفنى . وهذا الأخير قسم قصير من حياة الفنان . فإنى أعرف كتاباً كبارا لا يشتغلون غير ساعتين فى اليوم ؛ ولكن تصوراتهم ، ومطالعاتهم ، ومحادثاتهم هى أنواع أخرى من العمل ، لا تقل عنه أهمية وضرورة . « إن كل عملنا يقوم على كوننا فى راحة وادعين » كما قال جيته .

أفينبغى للفنان أن يحيى فى العالم أو خارج العالم ؟ أعتقد أن هذا سؤال

تستحيل الإجابة عليه . فالعزلة التامة ، التي هي أمر طبيعي للقديسين ، تضر أغلب المتفننين . إنهم يأتون بكل عجيب مادام لديهم مواد وعناصر . لقد اعتزل « بروس » في غرفته المحكمة وشرع في البحث عن الماضي المفقود ؛ فلو أننا كنا نهجنا نهج حياته ( وكانت لنا قوة ذاكرته ) لوجد كل منا ولا شك في ماضيه مواد كثيرة لا حصر لها . ولكن لم يستطع أحد ، من بعد بروس ، أن يعيد ، بريئا من كل غاية ، ما فعله هو ، إن معظم الناس في حاجة إلى التغيير والتحريف ( في ماضيهم ) . وهنا أيضا نجد جيته خير ناصح : « إنها لشيء جميل تلك الوحدة ، عندما يكون المرء في سلام مع نفسه ، ويكون لديه عمل معين . » فمن المهم إذن أن تعين العمل وتحدده من قبل أن تسعى إلى الوحدة التي يمكن أن تنجز فيها هذا العمل .

## ٧ — فن الراحة

إن فن الراحة هو جزء من فن العمل . فالإنسان المجهد الذي في حاجة قصوى للراحة لا ينتج أي عمل مفيد . وكلنا نعرف تلك الأصباح المزعجة التي يأبى فيها المخ أن يقوم بوظيفته بعد ليلة قضيناها مسهدين ساهرين . وسيكون من العبث إذن أن نحاول هنا تطبيق مبادىء فن العمل . فهذه المبادىء تفترض أننا مسيطرون على أجسامنا وأفكارنا . والجسم البشري لا يمكنه أن يحيي بغير هذا التغيير والتبادل بين العمل والراحة . ونظام « راحة آخر الأسبوع » الانجليزي ( Week-end ) هو قاعدة حكيمة من قواعد علم الصحة الاجتماعي . لقد شاهدت وزراء فرنسيين ، بلغ بهم الوهن مبلغا أخذت معه أعينهم

تغمض على الرغم منهم ، وكان لزاماً عليهم أن يتخذوا قراراً يتوقف عليه سلام أوربا . ففي مثل هذه الحالات تصبح الراحة واجباً محتوما .

وعندما يكون التعب نتيجة لمجهود جسماني ، فلا تكون الراحة فناً عسيرا : فما على الإنسان إلا أن يلقي بنفسه على فراشه وينام كما تنام الأنعام . أما في حالات التعب العقلي ، فيحدث أن يعصى النوم أولئك الذين هم في أمس الحاجة إليه . ففي هذه الحالة يوجد فن للنوم : وهاك بعض أسراره : (١) لكي تنام يجب الإعتقاد في أنك تستطيع أن تنام . ويستحب استعمال المنومات بمقادير زهيدة جدا ، على الأخص لتخلق هذا الإيحاء الذاتي المفيد ؛ (٢) لكي تنام ، يجب أن تكون في وضع تنقص فيه إحساساتك الجسدية إلى أدنى حد . فيكون إذن الجسم ممددا مسترخيا ، والحرارة متساوية معتدلة ، والظلام شاملا ؛ (٣) ولكي تنام ، يجب إقصاء الأفكار التي تشغلك والتي هي علة أرقك . فمن الأصوب إذن أن تقسر فكرك ، إذا أمكن ، على الرجوع الى الأيام البعيدة حيث لا توجد تلك الموضوعات التي تسبب لك ضيقاً وهما . فلتفكر في طفولتك وفي شبابك ؛ ولتستدع إلى ذهنك صورا قديمة ممعنة في القدم ؛ ولتحاول أن ترى هذه الصور وهي تكون وشياً ملونا تحت أجفانك المغلقة . وستنتقل رويداً رويدا إلى عالم مختلف هادىء ؛ فإنك ستنام .

وطريقة أخرى ، مختلفة كل الإختلاف ، ولكن لها أثرها عادة ، هي أن لا تعلق أية أهمية على الأرق ، بل وأن تعده عارضاً سعيدا ، فتأخذ بكتاب أو بعمل من الأعمال ، وبغير أن تضع للوقت حدودا ، تنتظر بهدوء وصفاء النوم الذي سيجلبه حتما التعب الجسدي .

وشغل أوقات الفراغ عند الرجل السليم النشيط هو عادة أمر عسير . فهو ، بعيداً عن عمله ، ضجر ملول . يدور فى منزله كما يدور الحيوان الحبيس فى قفصه ، وينحدر بمنحدر طبيعي نحو الرذائل التى ماهي إلا وسائل لتجتذب من جسمنا الإحساسات الزائدة العنيفة التى تحجب فراغ الوقت وخواءه . ولقد زادت المدنية الحديثة ، بالمخترعات والآلات ، من أوقات الفراغ . فواجب علينا الإفادة من هذه الأوقات . ولهذا وسائل عديدة :

ا — « أعمال الراحة » — ونقصد بهذا أن بعض الأشغال التى تعد أعمالا عند الآخرين تغدو لدينا ترويحا وتسلية . فالتمثيل ، وتنسيق الحدائق ، وصيد السمك ، والقنص ، وفن النجارة ، هى أعمال عنـــد الممثل ، وعند البستانى ، وعند حارس الصيد ، وعند النجار . وهى عند الهاوى ترويح وتفريج حتى لو عنى بأداء هذه المهن أشد عناية . وذلك أولا لأن تغيير العمل ، بتحريكه عضلات وأعصابا مختلفة ، هو فى ذاته راحة . وثانيا لأن الهاوى يشعر بالخلاص من الصراع ضد العالم الخارجى . فهو يفعل هذه الأشياء بحرية كاملة ، وهو يعرف أنه يستطيع هجرها فى أية لحظة . لقد زايله تعب الإلزام .

ب — اللعب — مازال اللعب نشاطا لا غاية جدية منه ، فليس الغرض منه حل مشاكل واقعية ، وإنما الخضوع لقواعد إختيارية أقرها اللاعبون وارتضوها باختيارهم . فلاعب الشطرنج أو لاعب البريدج لا يكافح العالم ، وإنما التفكير البحت . وفى هذا عنصران للراحة : فهو يعلم أن ضياع « دور » لا أهمية له ، وهو يعلم أيضا أن تدخل الصدفة محدود . ويجب الإشارة إلى

« الفضيلة الخلقية للألعاب الرياضية » فاللاعبون يفرضون على أنفسهم إحترام قانون اللعب ، لأنه لن يكون للعب وجود بغير قانون . ومثل هذه العادة ، عندما تفرض على شعب بأجمعه وعلى أجيال عدة لهذا الشعب ، وبالممارسة الطويلة للألعاب الرياضية ، تكون مواطنين يحترمون القانون ويقدرونه . « إنه لايمارس اللعب » ، هكذا يقول الإنجليز عن الرجل الذى يغش ويضلل فى الحب ، أو فى العمل ، أو فى السياسة . وما الحضارة إلا إقرار الناس لأمور عامة إتفقوا عليها . وكثير من هذه الأمور العرفية المتفق عليها إختيارية كقوانين « التنس » أو « الجولف » ، ولكن لأنها تتيح تدارك أفعال وإنفعالات أولئك الذين نعيش معهم ؛ فقد استبدلت بالكياسة واللين التخويف والترهيب ؛ وبالنشاط الرياضى النشاط الحربى .

حـ — التمثيل — وهنا نحن لا نعمل إلا بالنيابة . فنساعد ، ساكنين ، فى أعمال الآخرين . وإننا لنلتذ بها ونهتم : لأن « كل ماهو إنسانى ليس غريبا علينا » . فالمشاعر والعواطف التى تنمقها المسرحية الهزلية أو المأساة هى مشاعرنا وعواطفنا . فنحن نحياها مع المؤلف . فلماذا يكون التمثيل راحة ؟ لأننا ، فى عالم الفن ، لا نطالب بأى إلزام . فهذه القصة التى تهز نفوسنا ، والتى من الممكن أن تكون قصتنا ، تحدث فى عالم خيالى ، ونحن نعلم ذلك . وغرض علم الجمال بعيد كل البعد عن غرض علم الأخلاق ، ولكن التمثيل بتحويله النظارة عن صغائر الحياة ودناءاتها ، وبمزجهم بالعواطف الكريمة النبيلة ، يستطيع الكثير للسمو بهم ورفع شأنهم . ولكن هذا الذى يعد طريقة بارعة للترفيه عن النفس من عناء النضال الحقيق ، سيصبح كريها مقيتاً إذا

حل التمثيل منا محل الحياه . والذهاب إلى « السينما » أو الاستماع إلى « الراديو » باعتدال يهيء النفس ويعدها لأعمال جديدة ، أما الإسراف فى ذلك فيخمدها ويوهنها . إنها تصبح « أكثر من المطالعة » « رذائل بلا عقوبة » .

ى — الإرتحال — كل ارتحال أو تغرب فهو راحة ، ليس لأنه لا يلزمنا بأعمال يومية متعددة وشاقة ، ولكن لأنه يرفع عنا مسئولياتنا . والمتغرب ، عدا بعض الرجال الرسميين ، لا يعيش الا لنفسه ، وليس لأهل ، ولا لعشيرة. ولا يزيد البلد الغريب على كونه تمثيلا ؛ فلا نحس فيه الشعور الدائم بمسئوليتنا : وكلنا فى حاجة ، من وقت لآخر ، الى « حمام » من الجدة والحرية ، فيتبدى لنا بعده العمل الرتيب ، بالمقابلة ، سائغا لذيذا . والراحة ، من ناحية أخرى يجب أن تكون قصيرة المدى . عجيب أن ترى كيف يعيد الإرتحال لبضعة أيام إلى النفس رونقها ونضارتها .

## ٨ — خاتمـــة

إن الشخص الذى يحب عمله حبا جما صادقا ، يعود اليه ، بعد راحة قصيرة موجزة ، بشغف عجيب ولذة قوية . وحين يبتعد المرء عن مهنته ، يخيل له ، منذ توقف عن العمل ، أن حياته قد وقفت . ولكن ألا ينقطع عن عمله إذن أبدا ؟ إنه يحمل معه متاعبه . فالكاتب فى ترحاله يدير ويعيد فى عقله عبارة ناقصة لم يتمها . ألا يستيقظ فى الليل ؟ إن تكرار الألفاظ يؤرقه . إنه يمحو فى غلس الليل صفحات متخيلة تراود خياله . ورجل الصناعة ، البعيد عن مكتبه ، الذى يرتاد الساحل الرملى الهادىء ؛ إنه يمسك بقصاصة من الورق ،

وقلم ، ويروح ، مضطجعا على الرمال الناعمة ، يعيد حساب تكاليف ماصنع .
وهو إن كان على مقربة من مصنعه ، عاد اليه صباح يوم سبت ، وإن كان العمال والمستخدمون يومئذ غائبين . ويقف حائرا تائها فى قاعات المصنع الخالية ، يحلم بالتحويرات الممكنة ، والأعمال الجسيمة ، والأساليب الأكثر أمناً . .
ويسير الفلاح ، يوم الأحد ، يتريض فى أرضه . «ليس ثمة من خميلة من الخمائل ، ولا باقة من العشب الرطب ، إلا ولها علة ، وتاريخ ، وقدر أزلى . وإن العين لتلمح أثر الأمطار الأخيرة والمياه الجارية تحت الأرض . وتبدى الطرق منعرجاتها ، ومنعطفاتها ، وممراتها الشاقة ، وأخاديدها ، كل هذا ينبئنا بما عمل السابقون ، كل هذا يستدعى الى الذهن أعمالا كثيرة ».

ولابد من أن تصبح الجماعات حقاوات كل الحق، ويغدو أصحاب المذاهب والمبادىء أجلافا قساة ، كيما يمكن أن يتقزز الناس وينفروا من أعمالهم . إنه شعور طبيعى أن يتعلق الإنسان بما يفعل . « فالعمل يقصى الملل والضجر والرذيلة والعوز » . إنه دواء فيه شفاء لكل أدواء الخيال . . « بارك الله العمل ! » كما كان يردد على مسامعى دون انقطاع ، طوال مدة حرب سنة ١٩١٤ رئيسى « الكولونيل » الإنجليزى ، فبغير العمل لكنا اذن أشقياء تعساء . فقد كانت دواعى الأسى والقلق موجودة دائما لا تعوزنا أبدا . إذ كنا بعيدين عن أولئك الذين نحبهم ، ومعرضين للأخطار ، وقلقين على المستقبل . ولكن كيف تغشى الانسان هذه الهواجس الحزينة الكئيبة عندما يغمره العمل ؟ .

ومرة أخرى (فى سبتمبر سنة ١٩٣٨) عندما كنا على شفى أفظع الحروب وأشدها هولا ، عندما كانت تهاجم أفكارنا صوراً دامية للغارات الجوية

الليلية فإننا لم نجد قليلا من الطمأنينة إلا فى العمل . فكان لى نصيب فى قضاء وقت فى الخدمة العسكرية . وقام بتشغيلنا ضباط أذكياء أكفاء غمرونا فى غمرة العمل من الصباح إلى المساء . ولم يكن فى عقولنا الموجهة نحو غايات دقيقة فى الإمكان إدراكها ، مكان خال للفرط فى الخواطر ، ولا لديها القدرة على جموح الخيال . وفى الليل كان لابد لنا من النوم لأننا نكون متعبين . وهكذا انقضى الأسبوع العصيب .

وما يصح ويصدق على الأفراد ، يصح ويصدق كذلك على الشعوب . فلو وضعت إحدى الحكومات النشيطة العاملة لفرنسا برنامجا للعمل ، ولحنا فى طرف هذا البرنامج توكيدا لنهضة مباركة ، وأملا فى توفيق عظيم لامتنع عقل الشعب عندئذ عن الإستسلام إلى الهواجس المضطربة المختلطة ، ولتولد إذن عند الجميع شعور بالتعاون فى عمل عظيم مفيد ، ولرددت البلاد جميعا ، كما ردد ضابطى الكولونيل من قبل : « بارك الله العمل ! » . وأقول عن خبرة ، إنه دعاء دائما مجاب .

# ٤

# فن الرياسة

الإنسان بطبعه طمع مختال فخور ، فهو لا يجد فى نفسه أبداً سبباً لأن يحكمه غيره ، حتى تلجئه حاجته الخاصة إلى الشعور به . إنها الأحداث الجسام هى التى تجعله يعرف أنه ، بغير قيادة ، سيروح هو ذاته فريسة للأقوى ، وبهذا يصبح محباً للطاعة بقدر مايحب حياته الخاصة وسكينته .

( لويس الرابع عشر )

لايستطيع الناس أن ينهضوا نهوضا نافعاً لعمل عام فيه خير لهم إلا إذا قام واحد منهم ينظم ، فى كل حين ، نشاطهم جميعا ويوجهه نحو غاية بذاتها . وتتضح هذه القضية فى حالة الحركات التى ينبغى أن تخضع لوحدة واتساق . فمن العبث أن يكون عمل واضعى القضبان الحديدية ، أو المجدفين فى زورق ، متيناً محكما إذا كان رئيس الجماعة لايزن حركاتهم . ولكن كل عمل جماعى بغير هدى وإرشاد يتحول سريعاً إلى اختلال واضطراب . وكل من اشترك فى معركة يعرف الحاجة إلى امتثال الأوامر والأحكام وما يصدق على الجيش ، يصدق كذلك على المعمل ، وعلى المصنع ، وعلى الصحف ، وعلى البلاد ولابد من وجود الرئيس ، على الخصوص حيث ينبغى على جماعة من الناس أن يعملوا معاً .

وما يكاد يظهر الرئيس ، وما تكاد تصبح الرئاسة قوية دقيقة ، حتى يخلف النظام الإختلال والفوضى . وإبان حرب سنة ١٩١٤ كنت ترى فرقا ، أسيئت قيادتها ، تتقهقر أمام العدو ، وتستسلم إلى رعب وفزع لا أساس لها ؛ فما أن تسلم زمامها رئيس حقيق بهذا الاسم ، حتى غدت فرقاً جريئة

ثابتة فى قتالها عنيفة فى مقاومتها . . . والشعب الواحد ، المكون من نفس الرجال ، يرجع كونه عصياً أو وادعا إلى أن الحكومة تحكم أو لا تحكم . فبغير رئاسة ولا قيادة ، لن يكون عمل حربى ، ولا حياة قومية ، ولا حياة إجتماعية .

ولقد أسلمت الجماعات ، طوال التاريخ ، أمرها إلى الرؤساء الذين ، وقد بوأوا أنفسهم قمة المخروط ، أقاموا نظام المراتب والدرجات . وكلما آمن النظام الذى أقامه الرؤساء ، الشعوب على حالهم واطمأنت اليه حياتهم ، سولت لهم أنفسهم إزالة الطبقات والمراتب ؛ وفى كل مرة ظهر الإضطراب وبدت الفوضى ثانية ، أعيد نظام الطبقات فى صور جديدة . وعند ماتداعى هذا النظام فى الدولة الرومانية وفقدت الإدارة والجيش سلطانهما ، حل محله نظام الإقطاع بعد عهد طويل من الفوضى . وعند ما ألغت روسيا نظام رؤساء العمل فى صناعتها ، أصبح القيام بنفس الوظائف وقفا على طائفة معينة من الموظفين الرسميين ( بيروقراط ) والرجال الفنيين . هذا هو السبب الذى من أجله لم يحقق الإنقلابيون أبدا ، على الرغم من وعودهم وأمانيهم ، المساواة على الأرض . . ويمكن للإنسان أن يفهم ، وينبغى عليه أن يفهم ، المساواة فى الفرص وهى مادعاه بونابرت « ميدان الحياة المفتوح للكفاءات » ويمكن للإنسان أن يتمنى ، وينبغى عليه أن يتمنى مساواة الجميع أمام القانون ، ولكن لايمكن الإنسان أن يدرك مساواة الجميع فى الرياسة والقيادة ، فالإنسان لايمكن أن يدرك جماعة بغير رؤساء .

# ١ — كيف ينتخب الرئيس؟

لم تبتكر الإنسانية ، خلال تاريخها الطويل ، سوى عدد قليل من النظم لاختيار رؤسائها :

١ — الرئيس بالوراثة : وهذا هو أقدم نظام . ولقد اتبع هذا النظام ولاشك فى العشائر والأسر ، حيث كان الإبن الأكبر يخلف الأب . وكان الإخلال باتباع نظام « الأرشد » يعرض الجماعة لقتال بين الأخوة قد يجر وراءه إنقسامات وخلافات تفت فى عضد الجماعة . وإنا لنجد فى الكتاب المقدس وفى قصص المآسى اليونانية آثاراً من مثل هذه الخصومات والمنازعات . وفى نظام الحكم الفردى المطلق القديم ، كان الإنتقال الوراثى للسلطة يحدث دون نزاع . وكان وارث الزعامة يتمتع ، فى أعين أولئك الذين يتزعمهم ويحكمهم ، بنفوذ وهيبة طبيعيين وفائقين عزيزين . والدور الذى يقوم به الملك فى انجلترا ، باختيار الأحزاب ، راجع إلى هذا النفوذ وتلك الهيبة . ولقد شعر بهذا نابليون الذى رغب فى أن يقيم نظام وراثة الملك . لقد تبين له أن الملك اذا هزم مايبرح ملكا ، أما الإمبراطور فإنه لايوطد سلطانه إلا بالغلبة الدائمة والنصر بعد النصر .

ونرى نفس الشعور فى الأملاك أو الإدارات التى وليتها لعدة أجيال أسرة واحدة . وبعض المديرين والرؤساء والمزارعين ممن لايطيقون أية سلطة يحتملون سلطة وارث الإسم . وليس الأمر هنا أمر عادة ، وإنما هو شعور طبيعى ومنطق سليم . وقد يترك الأب لأولاده تقاليد وسننا

للحكم وتعلقا بالعمل ورعاية له . فالرئيس بالوراثة ، كالحاكم بالوراثة ، يشعر بارتباطه بما ملكت يداه بروابط من الشرف تلزمه بكثير من التضحيات . وقد رأينا ، فى فرنسا ، خلال الأزمة الاقتصادية التى مررنا بها أحسن الأمثال على ذلك .

وخطر السلطة الوراثية هو أن يجىء الإبن الأكبر للعائلة الحاكمة أو القائمة بالإدارة ، ضعيف الهمة قليل القدرة ، أو حتى مسخاً عاجزاً فاسدا . أيجب إذن أن يضع الشعب ، أو العمال ، ثقته فى إنسان عاجز عن إرشاده وتدبيره ؟ . لا ولاشك . كما أنه ، فى بعض البلاد التى تنتقل فيها السلطة بالوراثة ، قد حدث بعض إستثناءات عند ما تبين عجز الرئيس وعدم صلاحيته للرياسة . كما حدث فى انجلترا ، عدة مرات ، أن حور البرلمان فى نظام إرتقاء العرش . ويتخذ بعض رجال الصناعة فى الولايات المتحدة حيطتهم إبان حياتهم كيلا تعطى سلطات واسعة إلى ولد غير جدير بخلافتهم . فالسلطة الوراثية ، لو عولجت بالحكمة والتصرف الحسن ، وأشرف على تنظيمها البرلمان أو أحد المجالس ، كان لها فضائل عظيمة .

ب — الرئيس المنتخب : إن أولى صفات الرئيس هى أن يعترف به كرئيس . وكل رئيس يكون فى أمره جدل أو مرية ، فهو ضعيف الشأن . ويبدو أنه يجب أن يكون للرئيس المختار سلطان مبين لاريب فيه على أولئك الذين اختاروه . ولكن يحدث عادة أن الصفات التى جعلته ينتخب ( سحر البيان — بشاشة الوجه ) لا تكون هى صفات الزعيم فتنكشف

التجربة عن ضعف وعجز الرئيس المختار . وعلاوة على ذلك ، فإنه فى البلاد المنقسمة فيما بينها إنقساما كثيراً ، قد لا يمثل الرئيس المنتخب إلا أكثر قليلا من نصف الناخبين ، فلوكان النصف الآخر يحس نحوه نفوراً شبيها بالمقت نشأ عن ذلك موقف فيه خطر على الدولة كبير . ولقد رأينا مرات كثيرة بلاداً عظيمة تولاها الشلك والوهن ، لأن الزعيم الذى اصطفته الكثرة لم يوح بالثقة إلى الأمة جميعا .

ويصبح اختيار الرئيس بالإنتخاب كبير الخطورة ، ليس عند مايكون الإنتخاب فى أحد البلاد ، وإنما حين يكون فى جماعة أصغر كثيراً حيث تباشر فيها سلطة الرئيس على هذه الجماعة مباشرة . وعندما يجب إعادة انتخاب الرئيس بعد حين معلوم من الوقت . فكيف يستطيع اكتساب طاعة أناس عليه فى الغد أن يستجدى صوتهم ؟ إن اختيار رئيس العمل أو قائد الجيش ، بانتخاب الأكثرية له ، معناه الإلقاء بالعمل إلى الدمار وبالجيش إلى الهزيمة والإنكسار . وسرعان ما أدركت ذلك الحكومات جميعا ، فعدلت عنه حتى أكثر الحكومات ميلا إلى استرضاء الغوغاء ( الديماجوجية ) واقتصرت على تقليد الحكم لممثلين للجماهير : نواب ، شيوخ ، مديرين ( كوميسير ) ، الذين هم ، أو يجب أن يكونوا ، لا رؤساء ، وإنما منظمين ومرشدين .

حـ — « الماندارينا »[١] : الماندارينا نظام ينتخب فيه الرؤساء

---

(١) Mandarin : اسم خلعه الأوربيون على الموظفين العموميين فى الصين ، مدنيين أو عسكريين .

بناء على امتحانات تمنحهم الحق ، اذا هم جازوها بنجاح ، في الدرجات العلمية والوظائف . وكان هذا هو النظام الصيني فيما سبق . وهو إلى حد ما نظامنا .. فلكي يصبح الفرنسي أحد رؤساء الجيش ، أو الأعمال العامة ، أو السلك السياسي ، أو أغلب الإدارات ، يجب عليه أن يجوز إختبارات ومسابقات معينة . ويبدو هذا النظام على شيء من العدل والنصفة لأن شروط الإمتحان واحدة للجميع . ومع ذلك فله الكثير من المساوىء : أولا — لأن السن التي تجتاز فيها الإمتحانات ليست هي سن الرئاسة . فالرجل الذي سيكون في سن الأربعين ، رئيسا بارعا ، قد يجد نفسه مبعداً عن كل شيء إلى الأبد لافتقاره إلى بلوغ السن مبكراً . ثانيا — لأن صفات الرئيس ومزاياه ليست من الصفات التي يسهل تسعيرها وتقديرها ، بل ومعرفتها أثناء الإمتحان . . . ( يقول بول فاليرى Paul Valery إن من أكبر أدواء مجتمعنا وشروره التي نرضاها الإنتخاب والبراءة العلمية ) » .

ويصبح نظام « الماندارينا » نظاما مطلقا ، ليس فقط عند ما يحمي الإمتحان مدخل كل حياة مهنية ، ولكن عند مالا يمكن إجتياز درجة جديدة في سلم السلطة إلا بعد امتحان جديد . وهذى ، عندنا ، هي حال مهنة الطب . أما في الجيش ، فإن « المدرسة الحربية » ، و « مدرسة الدراسات العليا العسكرية » يكونان حاجزين يجب إجتيازهما ، ولكن الأقدمية ، والإختيار ، والرعاية ، تلعب دورها في وقت السلم ، ويلعبه النصر في زمن الحرب . فالنظام الفرنسي هو شكل ملطف من « الماندارينا » .

ى — الأقدمية والإختيار : ولا يوجد إلا القليل ليقال عن الأقدمية . فأما أن الناس يكتسبون . بكبر سنهم . بعض الخبرة فى عملهم وحرفتهم ، فهذا بين ، على أن لا يكونوا على الأقل كسالى متثاقلين ، أو بلداء غافلين ، أو قد وهن العظم منهم فهم على عكازتهم يعتمدون . ولكن العجائز كثيرون ، ولم يقل أحد أبدا بانه يكفى لاكتشاف أفضلهم ، أن ننظر شهادة ميلادهم . وإذن فيجب أيضا الإختيار بينهم .

ويبدو أن أقوم السبل وأحكمها هو اختيار الرؤساء بوساطة رؤسائهم الذين ، وقد علت منزلتهم عليهم ، وجب أن يركنوا إليهم وأن يكونوا مسئولين عن عملهم . فرئيس الدولة ( ملك وراثى أو رئيس منتخب ) يختار رئيساً للوزراء ، يرضى به البرلمان ، ويختار رئيس الوزراء وزراءه ، ويختار الوزراء رؤساء المصالح ، ويرشح رؤساء المصالح من يشغلون الوظائف المختلفة الشاغرة فى مصالحهم . لقد شيد الهرم من قمته ، وقد يتبوأها من لا يفقه شيئا فى فن الهندسة ولكنه موفق ناجح فى الإدارة .

والواقع أن هذا النظام حكيم من حيث المبدأ ، ناقص عند العمل به . ففيما عدا اختيار رئيس الوزارة وبعض الوزراء السياسيين ، ينبغى أن لا يكون رائدنا فى اختياراتنا ، بما فيها اختيار الوزراء الفنيين ، شيئا غير اعتبارات القيمة الفنية والخلقية . فصالح البلاد وبالتالى صالح ولاتها ، أن يكون رئيس قوادها ومدير السكك الحديدية من خيرة رجالها ، كيفما كانت آراؤهما السياسية ومذاهبهما الدينية ، وبغض النظر عن أصدقائهما أو ذوى قرابتهما . ولكن لا شيء يمكن أن يجرد الناس من عواطفهم . فالصداقة والقربى يؤديان دوراً

فى الإختيار يدعو إلى الأسف أحيانا . فعلى كل منا أن يكون شهيداً على الآخرين رقيباً على نفسه ، كيلا يضار الأكفاء.

هـ — الرئيس المفروض — وأخيراً فى بعض حالات اليأس العصبية ، حين يدب الوهن والإنحلال فى جسد الدولة ، لايختار الرئيس إختياراً ؛ وإنما يفرض نفسه هو فرضا . فليست من سلطة عليا اختارت «كرومويل» ، المالك الصغير المغمور ، الذى قاد حفنة من الفرسان . . ولقد جعلت الثورة الفرنسية من بونابرت قائداً عظيما ؛ وهو ذاته الذى جعل من نفسه رئيسا للدولة . . ومازالت الأمثال الحديثة ماثلة لأذهاننا جميعا . أما أن الرئيس الذى يتقلد السلطان بالقوة يكون دائما حاصلا لصفات الرئاسة ، فهذا حق صريح : فلو لم تكن لديه هذه الصفات ، لما أمكنه الإستيلاء على السلطة . والمسألة هى معرفة ما إذا كانت هذه الصفات هى وحدها فقط صفات زعيم الثائرين المتعصبين ، أو أنه أهل لأن يسمو إلى صفات رئيس أمه . أما فى حالة بونابرت ، فسرعان ماتفوق بونابرت رئيس الدولة على بونابرت المتعصب الثائر . ثم كانت عظمة ( القنصل الأول ) ومجده . فلو لم يكتب له التوفيق دائما ، لما شاء بقوته أن يكون الرجل الذى جمع شمل فرنسا ورئيس الفرنسيين جميعاً . «إنى لا أنكر شيئا ، بل أقر كل شيء ، من عهد «كلوفيس» (٤٩٦) إلى عهد «لجنة الأمن العام» (١٧٩٣)» . وبلوغ الرئيس الذى يخلق نفسه إلى السلطة ، ينشأ عنه إشكال عسير ، هو إشكال خلافة العرش من بعده . فإبن كرمويل لم يحكم طويلا ؛ ومات إبن بونابرت فى المنفى ؛ وكره خليفة «لينين» عمل لينين وهدمه .

والحقيقة أن اختيار الرئيس هو إشكال لا يقبل حلا واحداً تاماً . وإنما يتوقف كل شيء على ظروف الماضى والأغراض التى تنشدها البلاد فى المستقبل. أما أن ينتخب الرئيس أو يختار أو يفرض بحكم مولده أو بالقوة ، فإنه على أية حال لن يستطيع البقاء فى الحكم إلا إذا كانت له صفات معينة لازمة لمن ينبغى له أن يرأس .

## ٢ — خصال الرئيس

إن رسالة الرئيس هى تنظيم وتوجيه نشاط الآخرين ؛ فلا غنى له عن معرفة الغاية التى يرمى إلى توجيههم إليها . وأولى خصال الرئيس هى العزيمة . فينبغى على الرئيس أن يعرف كيف يتخذ فى أمر قراراً يتحمل مسئوليته . ويجب طبعاً ، من قبل أن يقطع فى الأمر ، أن يحاط خبراً بكل المعلومات والبيانات ، وأن يزن كل كبيرة وصغيرة فيما استقر عليه رأيه . فإذا ما اختار وأمر ، وجب عليه أن يظل صادقا فيما عقد عليه العزم ، أللهم إلا إذا اعترض سبيله عارض لايمكن تداركه أو عائق لا يمكن تجاوزه . فلا شيء يطفىء همة الأتباع كرئيس متردد واهن الصريمة . « فالحزم، كما قال الإمبراطور، يقهر كل شيء ويفوقه » . لقد كان مستر تشمبرلن فى سبتمبر سنة ١٩٣٨ يريد السلم ويتجنب الحرب ؛ وقد ننقد سياسته ، ولكن حتى خصومه أنفسهم يجب أن يعترفوا أنه بإصراره وتمسكه برأيه قد انتصر بسياسته تلك التى اختارها .

ويجب كيما يقرر الرئيس أمراً ويختاره ، أن تكون عنده « شجاعة خلقية » عظيمة . فكثيراً مايكون القرار الذى عليه اتخاذه مؤلما شديد الوطأة على نفسه،

فى بدية الحرب العظمى السابقة كان على المارشال « جوفر » ( Goffre ) أن « يتخلص » من عدد وفير من القواد كانوا أصدقاء له . وأحيانا تكون التضحية ببعض الناس لازمة لإنقاذ عدد عظيم غيرهم . ويمكن للرئيس أن يكون ، ويجب فى الأغلب أن يكون ، صارما ؛ ولكن ليس من حقه أن يكون شريراً ولا قاسياً ، ولا حقودا . وواجب عليه أن يحتقر المهاترات ، ولكن عليه ، إن أمكن ، أن يوجه تيارات الفكر والرأى التى تحمل عليه .

ولابد للرئيس من أن يجمع حوله « جماعة » يهبونه أنفسهم ويكرسون وقتهم لخدمته ، ويقومون باتخاذ القرارات البسيطة . ولكن يجب أن لا يسمح للأشجار أن تحجب عنه الغابة . ولديه للتنفيذ رجاله الفنيون الذين اختارهم هو ووضع ثقته فيهم ؛ فهو يدعهم يعملون ويكتفى بأن يتحقق من دقة بياناتهم بالاختبار والسبر الكثير . قال أحدهم للمارشال « ليوتى » : « وأنت ، ماذا تفعل ؟» — فأجابه : « أنا، إننى الرجل الفنى فى الأفكار العامة . » . والرئيس ذو الخبرة بشئون الحكم يعلم أنه يستحيل عليه تنظيم كل صغيرة فى حركات كل فرد من أتباعه . وعلى الأخص حين يكون ميدان عمله هو الإقتصاد ؛ فإنه يكتفى بتبيين الإتجاهات وبأن يحتم على النفع الخاص إحترام النفع العام ؛ إنه لا يدعى إحلال خطة يضعها محل آثار ونتائج عواطف ملايين من الناس . كما أن « رجل المرور » ينظم حركة العربات وتدفقها ، ولكنه لا يرسم لكل عربة طريقها ومسلكها .

وينبغى على الرئيس أن يوحى إلى رجاله إحترامه ، إذ لو أعوزه احترامهم إياه، لضاعت ثقتهم فيه وخرجوا عليه . والوسيلة الوحيدة لكى تكون محترما،

هى أن تكون جديراً بالإحترام . فالرئيس العظيم هو ذو الخلق العظيم . إنه النزيه الكريم الذى لا غرض له ولا مأرب . ولعل « مستر بلدوين » و« مسيو بوانكاريه » كانا يفتقران إلى الجلال والمهابة والتألق، وكان مستر بلدوين يتظاهر بخلوه منها، ولكن كلاهما كان رجلا لا يتطرق الشك إلى أمانته المالية، ولا تتسرب إليها ريبة . بل لقد تنازل مستر بلدوين عن نصيب من أمواله للدولة ؛ كما كان مسيو بوانكاريه يرفض استخدام حاجب الوزارة لحمل رسائله الخاصة . وكان لكلا الرجلين الصفات البسيطة التى يتطلبها الرجل العادى فى مدير مصنع صالح أو فى زوج طيب . هذه الخصال الأولية البسيطة خلقت قوتهما . وقد نقر سياستهما أو لا نقرها، ولكن حتى خصومهما لا يأبون عليهما حقهما فى الحكم . إنها قوة للحاكم المطلق أن يكون عفاً نزيهاً، وأن يكون زاهداً كريما . ولقد آتت « بولانجيه »[1] ظروف رائعة مرات عديدة أثناء حياته فأضاعها من يديه ؛ إنه لم يكن أبداً أهلا للسعادة .

ويجب على الرئيس أن لا تتملكه إلا عاطفة واحدة : هى عاطفته نحو عمله ومهنته . يجب عليه أن يظهر مما يبطن وأن يتستر أيضاً بالأسرار والخفايا . وليس من المعيب أن تثار حول حياته الأقاصيص والخرافات ؛ ولن ألومه إذا هو عنى بنشر هذه الأقاصيص ورعايتها . « فالشخصية » تحكم وتسيطر بقدر ما يحكم ويسيطر الشخص الواقعى . ولقد وصف « كبلنج » « الرجل الذى أراد أن يصبح ملكا » ، المغامر الذى حكم، بقوة أخلاقه

(١) جورج بولانجيه (Gorges Boulanger) قائد فرنسى . ووزير الدفاع سنة ١٨٨٦ . انغمس فى مؤامرات سياسية فى السنوات الأخيرة من حياته . ومات منتحراً فى بروكسل سنة ١٨٩١

وتفوقها فحسب ، قبائل جبلية ، وأصبح زعيمها . ولكنه يفقد مهابته وعرشه في اليوم الذي يضعف قلبه فيقع في هوى إحدى فتيات شعبه ويدع تلك المرأة ترى أنه ماهو إلا رجل كالرجال . «فكم من رجال — كما قال نابليون — ما كانوا ليخطئوا إلا بسبب ضعفهم من أجل امرأة » . . ويجدر بنا أن نذكر شيئا عن امرأة الرئيس ، فدورها شاق عسير : فعليها حمايته من العالم ، ووقايته من التعب الذي لافائدة فيه ؛ وأن تحذر دفعه إلى أفعال تمليها عليه ، وأن تجعل من بيته ملجأ وادعاً مريحا يسكن إليه ، وليس مملكة جديدة يحكمها ، بل أبعد شيء عن الحكم .

ذات يوم ؛ كان القوم يتجادلون أمام « وليم بت » ( William Pitt ) في الصفات الأساسية لرجل الدولة ، فذكر أحد الحاضرين قوة العمل ، وآخر الحيوية ، وثالث البلاغة . فقال بت : « كلا ، فالصفة الأساسية للوزير الأول ، هي الجلد . » لقد كان محقا فلا بد من الصبر والجلد ، ليس فقط للوزير الأول وانما لكل أولئك الذين يحكمون جماعة من الناس . فالغباوة عامل مهم في الشئون الإنسانية . فعلى الرئيس الحق ان يتوقع دائما الإصطدام بها وأن يعد نفسه لتحملها بصبر مابقيت الغباوة طبيعية ومألوفه : إنه يعلم أن أقواله ستشوه ، وأن أوامره سيساء تنفيذها ، وأن مساعديه يغار بعضهم من البعض الآخر . فهو يحسب ، في تصرفاته ، حساباً لهذه الظواهر التي لا يمكن تجنبها . وبدلا من أن ينشد رجالا عاملين لا عيب فيهم ولا نقص ، الذين لا وجود لهم في أي مكان ، فإنه يحاول أن يفيد أفضل فائدة ممن هم تحت إمرته . . إنه يحكم الناس كما يكونون ، لا كما ينبغي أن يكونوا . .

وهناك صورة أخرى للجلد ، هى المثابرة على الجد . فالرئيس الحق لا يعتقد أبداً أنه مادام قد بلغ غرضا وأصاب هدفا ، فإن شئونه وشئون بلده قد سويت إلى الأبد . فلا شىء فى هذا العالم مدبر للأبد . ولقد كان نابليون يقول : « إن أعظم خطر إنما يوجد فى وقت النصر والفوز . » فالحديقة البديعة المنسقة ، لو أنك تركتها وشأنها بعض الوقت ، لغزاها الكلأ والأعشاب القبيحة . والبلد الغنى القوى ، لو أنه ترك بضع سنين ، دون تربية وتهذيب ، لعاث فيه أهله فساداً ثم أغار عليه المغيرون . . . فالرئيس يعلم أنه ما من نتيجة يحصل عليها إلى الأبد ، وأن عليه ، منذ آن يستيقظ فى الصباح أن يبدأ عمله من جديد .

ومن الخصال التى لا تقل أهميتها عن الجلد : الكتمان . « فالسر ، كما قال ريشيليو ، هو روح شئون الدولة . » وقد فقد شارل الأول ( ستيورات ) عرشه ورأسه بسبب عدم حرصه على كتمان السر . لقد دبر مشروعه بالقبض على زعماء العصاة الثائرين فى ساحة البرلمان ؛ ولكنه لغفلته وعدم حكمته باح بمشروعه إلى ملكته الجميلة « هنرييت دى فرانس » . وكاشفت هذه ، فى لحظة من لحظات الحماسة والتهور ، إحدى نسائها ، التى كانت تثق بها وتأتمنها ، والتى كانت لها علاقات بالمعسكر الآخر ، فسارعت إلى تحـــذير الأعضاء المهددين . وكانت النتيجة أن الملك ، حين قام بمفاجأته العظيمة ، وجد الطيور قد أفلتت وطارت وألفى الأشرار ثائرين هائجين . . إن الأخلاق تقتضيك « أن لا تقول إلا ما يجب أن تقوله ، لمن يجب أن تقوله ، عندما يجب أن تقوله » . .

كتب « الكولونيل ديجول » يقول : « لا شىء يقوى السلطة ويرفع قدرها أكثر من الصمت . فإن يتكلم الإنسان ، إنما هو يذيب من تفكيره ، ويفرغ

من حميته . و اختصار هو يبدد ويشتت حين يتطلب منه الفعل أن يحصر ويركز . وبين السكوت والنظام يوجد شبه ارتباط ضرورى . فيبدأ رئيس الفرقة بأن يصيح فى أفرادها ليؤهبهم للعمل قائلاً : « إنتباه ! » ، ولما كان كل ما يأتيه الرئيس يسرى بين أتباعه سريان العدوى ، فإنه بذلك يخلق الهدوء والإنتباه على شرط أن يصمت هو . . . » لقد كان « البرنس كونديه » أثناء موقعة « لاكروا » لايزال فتياً يتفجر شبابا ويفيض حماسة ، فكان يمتطى صهوة جواده ، يتفقد المواضع ويجوس خلال الصفوف دون أن ينبس ببنت شفه . . . وكان « الجنرال هوش » ( Hoche ) القائد الشاب الفائز المتألق ، الذى أنضجته قبل أوانه شهرته وخبرته فى القيادة ، يلزم الهدوء كل اللزوم ويوجز فى الكلام كل الإيجاز . . . ثم من ذا الذى كان أكثر صمتاً وأخلد إلى السكوت من بونابرت ؟ إن « الجيش العظيم » ليحذو حذو قائده ويتخذ منه مثالاً . ولقد كتب « فنى » ( Vigny ) يقول : « عرفت ضباطاً أخلدوا إلى صمت النساك فلم ينفرج فمهم إلا لتمر منه الأوامر . » وكان للويس الرابع عشر من عظمة الهيئة ووقار الطلعة « ماألقى الخشية والإجلال فى قلوب رعاياه . وحال بين أولئك الذين كان يلحظهم برعايته وبين التمادى فى حريتهم ، حتى فى جلساته الخاصة . » ولا ريب فى أنه من العسير جداً على الرئيس أن يوازن موازنة دقيقة بين التحفظ والرزانة اللازمين لهيبته وبين السماحة والكياسة الضروريتين لتكوين العمل . ولكن هذه الصعوبة يسهل تذليلها باللباقة الطبيعية التى فطر عليها ذلك الذى ولد من أجل الأعمال الجسام .

ولنضف إلى هذه الصفات أيضاً « شجاعة القلب » ، الفضيلة الوحيدة التى

لا تجيز النفاق ، و « الصحة » . فإنها لقوة للرئيس أن يكون سليما صحيح البدن ، فبذلك يسهل عليه كثيراً الجلد والعمل والعزيمة . ولقد كان للمارشال جوفر ميزتان من ميزاته العظيمة هما نومه وشهيته . ولها نحن ندين بكسب معركة المارن ، فاتزان الجسم يجعل العقل يؤدى وظيفته أداء حسناً . « ورباطة الجأش هي أعظم صفة يتصف بها الحاكم » . وإنى لأذكر المارشال جاليني في ميدان القتال ، وقد أصدر أوامره ، ثم راح يطالع كتاباً في يده . ولما أبدى ليوتي دهشته وعجبه لذلك ، أجاب جاليني : «ماذمت قدفعلت كل ما في وسعى فعله ، فلأنتظر ما يجد من حوادث ، وفي انتظارها فلأفكر في شيء آخر » . وهذا نهج سليم ليعيد للذهن صفاءه ويحفظ للنفس هدوءها وسكينتها . ولقد احتذى ليوتي مثاله ، فعندما حوصر في فاس وظن أنه لامحالة ضائع هالك ، عكف على قراءة « دى فيني » . ويقول « مونتاني » في هذا الصدد : « إنه ليمتع نفسي أن أرى قائداً للجيش على قدم من ثغرة يريدمهاجمتها وشيكا ، وقد استغرق بكليته ، مغتبطاً ، في حديث ينهيه إلى أصدقائه ؛ وأن يختلس «بروتس» من حراسه بضع ساعات في الليل ليقرأ « پوليب » ( المؤرخ اليوناني القديم ) آمناً مطمئنا . »

## ٣ — ذكاء الرئيس

الخلق يفوق الذكاء ويتقدم عليه ، ولكن الذكاء ضرورى لا بد منه . فمن المرغوب فيه كل الرغبة ، أن يكون الرئيس على شيء من « الثقافة العامة » ، سواء أكان مهندسا ، أم ضابطا ، أم سياسيا عظيما . فالشعر والتاريخ يعلمانه

معرفة العواطف الإنسانية معرفة جيدة. والثقافة تهيء لرجل العمل ملاذاً يستطيع أن يلوذ به من وقت لآخر فيجد فيه أمنه وصفاءه. إنها تمده بنماذج من النظام والوضوح. وإصلاح بلد، أو قيادة جيش، هما بمعنى من المعانى، قيام بعمل فنى. وذلك الذى اكتسب، من دراساته، تذوق الجمال والإحساس به لهو أنجح من غيره وأكثر توفيقاً فى عمله.

وكتب المارشال فوش يقول. «إذا كانت خاصية الدراسات العلمية هى تدريب العقل على تأمل الإمتدادات والأشكال المعينة ماديا، فان خاصية الدراسات الأدبية والفلسفية والتاريخية هى أنها، قبل كل شيء، تولد وتخلق أفكاراً عن العالم الحى؛ وبهذا تروض العقل وتكسبه مرونة وسعة، وبالجملة تدعمه فى الحياة العملية الخصبة بعالم اللامعين الذى يفتح الحياة... وسيعزز المستقبل ضرورة وجود ثقافة عامة، على الأخص بالنسبة للضابط، بجانب المعرفة الحرفية.»

ومن الطبيعى أنه لابد كذلك من المعرفة الحرفية ولا غنى عنها. وحين نشرت من قبل كتابى «محاورات فى الرياسة» (Dilogues Sur le Commandement) تسلمت كتابا فى هذا الموضوع من المارشال «فايول» Fayolle القائد البارع المتواضع يقول فيه: «إنه لقدير على الحكم ذلك الذى أوتى خلقا كريما. وعقلا حكيما، واكتسب، على الأخص، علما غزيراً، إذ لا يمكن أن تنتج المعرفة إلا عن عمل طويل متصل. إن أحدا لم يلاحظ تماما أن كثيرا من الرؤساء العظام فى الحرب الأخيرة (الحرب العظمى الأولى) كانوا أساتذة قدماء فى «مدرسة الحرب»: فوش، بيتان، وأنا نفسى، وغيرنا كثير...

إنها أول مرة نرى ذلك : أستاذة يصبحون قواداً كباراً فى الجيش . ويرجع هذا الى الصفة الواقعية في أساسها للتعليم الذى يدرس فى مدرستنا الحربية . فكل شيء فيه يستند إلى التاريخ وتبديل المواضع ؛ وتستمر الدراسة التى تلائم العصر الحالى دون انقطاع ، فتكون أثناء الشتاء بأعمال كتابية ، وفى الصيف بدراسات على الميدان . . . ولتعتقد تماما أن ذلك الذى قضى أعواما فى حل إشكالات الحروب المختلفة المتباينة . لن يقف حائراً مرتبكا فى ميدان القتال، فالحلول الصائبة تخرج بكل جيش من مآزقه وورطاته ، وهذا طبيعى على شرط أن تقوم بالحلول عقول جيدة تلقت تعليما فى مختلف مسالك العقل المستقيمة . فتؤدى القوى المختلفة التى تدخل فى عملية الحرب (مادية ، عقلية ، خلقية) الدور الذى يناسبها . ويجب أن نحذر إهمال البعض بتعظيم البعض الآخر . فالكل متساو فى الأهمية . »

وذكاء الرئيس يجب أن يكون « بسيطا » . فالعمل لايقبل الأفكار والخطط المعقدة قبولا حسنا . وقد يكون الإسراف فى التنظيم فى الصناعة عيباً يسبب من الخسارة مايسببه عدم التنظيم . إن أجهزة نقل الحركة فى الآلات تستوعب كل مجهود المحرك . ( وهذا هو السبب الذي من أجله تنجح بعض الأعمال الصغيرة التي يديرها فرد واحد ) فيجب أن يحوى عقل الرئيس أفكاراً بسيطة جداً ، اكتسبت من التجربة وعززها العمل ؛ وأن يضع فى هذا « الجهاز » الثابت ، المعارف الدقيقة العزيزة التي يحتاج اليها لبعض أفعال معينة .

ويجب أن يكون ذكاء الرئيس ذكاء «مستقبلا» ( أي يستقبل المعارف) .

كان « الكاردنيال ريشيليو » يقول : « يجب أن تنصت كثيراً ، وتتكلم قليلا ، كى تحسن العمل فى الحكومة » . ولكن لايجب أن تستمع إلا لبعض الناس الذين تعلم أن أنباءهم صادقة وأخبارهم دقيقة . وحسن منك أن تعرف السكوت ، ولكن ليس أقل نفعاً وحسنا أن تحمل الثرثار على السكوت .

كما يجب أن يكون ذكاء الرئيس « سريعاً » . فالزمن عامل أساسى فى كل عمل . ففى كثير من الحالات ، يكون العمل الناقص ، الذى ينفذ فى الوقت المناسب ، خيراً بكثير من عمل كامل لايمكن تحقيقه إلا متأخراً وبعد فوات الوقت . وأحيانا يكون عامل الزمن من الأهمية بحيث يجب عده أهم شىء فى المسألة . فوزير الطيران لاينبغى له أن يقول : « إذا أعطيت رجالا ، وسمحت الميزانية ، ووافق البرلمان ، فكم من الوقت يلزمنى لبناء خمسة آلاف طائرة ؟ » وإنما يقول : « مادام يلزمنى خمسة آلاف طائرة فى الربيع ، فماهو « الإعتماد » الذى ينبغى على أن أطالب به ، وماهو المجهود الذى يجب على أن أطلب بذله من المصالح والأقسام كى أحقق هذا الغرض ؟ » . وفى الصناعات التى تتبع الأنماط المستحدثة كما فى صناعات الحرب ، وفى تصريف شئون أحد المصارف كما فى تصريف شئون إحدى الصحف ، يكون التوانى خطيراً قاتلا . . رئيس سريع التفكير يحيط به معاونون سريعو التنفيذ .

وأخيراً فإن ذكاء الرئيس يدخل فى حسابه السنن القديمة والعادات الموروثة . . فمن بين العناصر التى يستخدمها لبناء المستقبل ، يقدم اليه الماضى بعضاً من أثبت وأمكن هذه العناصر . عليه أن يصقلها ، ويحورها ، ولكن ليس له أن يطرحها ويرفضها . ولقد بين كبلنج من قبل ، فى قصة له بديعة ، كيف عاقبت آلهة النهر « بناة الجسر » الذين ارتابوا فى قوانين العمل القديمة

ولم يؤمنوا بها ونحن ، نحن أبناء القرن العشرين ، قد تجهزنا بالعجيب المدهش من العدة والسلاح لقهر العالم ، ولكن العالم يثأر منا أروع ثأر ، فليست نتائج أفعالنا وتبعاتها مما يسهل دائما تبصره وتداركه . ويحدث أن أناسا ، أثناء ثورة أو انقلاب ، يبدو أنهم نجحوا فى تحطيم تقاليد أحد البلاد . ولكن يجب ، لكى نحكم عليهم حكما صحيحاً ، أن ننتظر نهاية التجربة . فقد انتهت الثورة الفرنسية بحركة إحياء وتجديد للقديم ( Restauration )[1] ، والرئيس الحكيم لاينسى أن « صبى الساحر » لقى عنتا ومشقة فى إعادة الهدوء والسكون إلى « المكنسة السحرية » ، وقد حركها برقاه وتعازيمه .

## ٤ — فن الرياسة

سواء أكان الرئيس وزيراً ، أم ضابطا ، أم مهندسا ، أم مديراً ، فإنه يتصل بمن هم تحت إمرته بوسائل ثلاث : بالأوامر التى يصدرها ، وبالتقارير التى يتسلمها ، وبالتفتيش الذى يقوم به .

وأولى صفات الأمر هى أن يكون واضحا . فتأمل مسألة قد لايبرح غامضا ، والتفكير فى مشروع يكون دائماً على شىء من وهم الخيال ، أما الأمر فيجب أن يكون دقيقا صريحاً محكما . وكل أمر فهو عرضة الى حد كبير لأن يساء فهمه ، والأمر الغامض المبهم لن يفهم أبداً . وكان الأمبراطور يقول :

---

(١) الحقبة التى عادت فيها أسرة بوربون إلى عرش فرنسا من سنة ١٨١٤ الى سنة ١٨٣٠ ( حكم لويس الثامن عشر وشارل العاشر ) .

« إن الإنسان لايحسن فعل شيء ، إلا إذا فعله هو بنفسه » . فورة خلق وثورة نفس . . . ولكن الرئيس الفطن اللبيب يعترف بأن الإنسان لا يفهم شيئا من لاشيء ، وأن كل الناس ينسون كل شيء . فلا يكفي إذن أن تلقى أمراً ، بل يجب أيضا التثبت من تنفيذه . كما يجب ، حين إصداره ، تدارك كل مايمكن أن يبطل آثاره أو يعطلها . فالغباوة الانسانية والصدفة السيئة لاحد لها . فدائما يحدث ماليس في الحسبان . فالرئيس الذي يعنى بإفساد هجمات « الحظ » ، والذي يحصن مقدماً مواضع الثلم والخدش في خططه ضد « الغباوة » ، يكون نصيبه من تحقيق إرادته أكثر قليلا من غيره .

ولا يكون لهذا الحذر وهذه الحيطة كل تلك الأهمية يوم يصل الرئيس الى تكوين جماعة من المعاونين قد أثبتت له الخبرة الطويلة أن فى استطاعته الوثوق بهم . فكل خبير سياسي كبير له مكتبه ، وكل رئيس حربي عظيم له ضباطه . وهذه الهيئآت تعلم نزوات الرئيس وأهواءه ، وتعرف كيف تخدمه وتفيده ، وتفهم أوامره المقتضبه الموجزة ، وتعنى كل العناية بنقلها بدقة تامة . ولكن قليل جداً في هذا العالم عدد أولئك الذين يمكن للإنسان الإعتماد عليهم . ويقولون عن « الرئيس ولسن » إنه كان يثق فى الإنسانية ، ولكن لايثق في الناس جميعا ؛ والرئيس الحق لايثق في الإنسانية ، ولكنه يثق فى بعض الناس .

كيف يتسنى له اختيارهم؟ . من عمل الرئيس أن يعرف معرفة تامة الأفراد الذين يمكنه أن يزود بهم فريقه . فمن دواعي قوة « المارشال

بيتان ، حين تقلد قيادة الجيوش الفرنسية ، أنه كان قبل ذلك أستاذاً في المدرسة الحربية ، حيث كانت تمر من بين يديه أجيال بأكملها من شباب الضباط . ولقد قام « غامبتا » ( Gambetta ) بالطواف بأرجاء فرنسا كلها ليعرف ولاتها . إن من يشرف بحكم بلد يجب أن يعنى بالكشف عن خير العناصر فيه ليبوئهم أرفع المناصب .

ولا يجب عليه أن يفيد من العناصر الطيبة الموجودة فحسب ، وإنما واجبه ونفعه يلزمانه بأن يخلق مثلهم خلقاً جديداً . وهذا هو مايفعله في الخارج كثير من الأحزاب ، كحزب المحافظين في انجلترا مثلا . فهذا الحزب الأخير يترصد الفرص في الجامعات الكبيرة ويتربص الشبان الذين يتوسم فيهم قدرة على أن يصبحوا يوماً ما رجال سياسة . ويخاطب في شأنهم إحدى الكليات لتكوينهم وتنشئتهم . فإذا أبدوا فيها تفوقاً ملحوظا ، بحث لهم عن دائرة إنتخابية يرشحهم فيها . وحين يصبحون نوابا ، يسعى رئيس الوزارة في أن يتيح للنابهين منهم تجربة الشئون العامة ، بأن يتخذهم سكرتيرين برلمانيين ، ثم وكلاء وزارة . إنه لمن عمل رئيس الحزب أن يعزز الهيئة الحاكمة ويؤيدها بمدد من عنده . وهو كذلك من عمل رئيس المصنع ، وقد أدرك ذلك بعض الرؤساء في عالم الصناعة . فمصانع « ليكريزو » ( Le Creusot ) مثلا ، لها مدارسها التي أتقن تنظيمها وأحسنت إدارتها ، حيث يعدون كل شاب ، منزهين مخلصين ، إعداداً يؤهله لأرفع منصب يظهر أنه جدير به .

ومن العسير عادة أن تفرض الوفاق والوئام التامين داخل هيئة العمل .

ولكن ينبغي على الرئيس ألا يبيح لقسم من أقسام العمل أن تتملكه روح الطائفية والنعرة الشبيهة بالغيرة الوطنية التي تجعله في حرب مع الأقسام الأخرى . فلئن حدث ذلك ، في مصلحة السكة الحديدية ، بين « قسم الحركة » و « قسم الإصلاحات » ، أو في هيئة أركان الحرب ، بين المكتب الأول والمكتب الثاني ، كان لزاما على الرئيس أن يحمل الجميع على أن يدركوا أن الجيش أو المصنع أو البلد إنما يكون جسماً واحدا حيا ، وأن كل صراع بين عضو وباقي الأعضاء هو الإنتحار عينه .

ويحدث في الغالب أن تدب الغيرة في قلوب المساعدين ويحسد بعضهم بعضا ، وكلهم محب للرئيس مخلص في خدمته ، فيتجادلون في حدة وعنف في آيات تقديرهلم . فعلى الرئيس أن يتدبر الأمر ويلطف من هذا النزق الذي يضعف الكيان إلى حد خطير . وكما يعرف سائق السيارة الخبير ، من سماعه ضجيج المحرك ، أن إحدى إسطوانات البخار ( السلندر ) لاتعمل جيدا ، فكذلك الرئيس المطبوع يشعر أن العمل لاينتج أنتاجا حسنا ، فيبحث عن السبب ويجده . وهو سبب في الأغلب الأعم تافه بسيط : ذرة من التراب في ( الماسورة ) ، وهزة كتف ليست الا عادة مضحكة قد فهمت على أنها إهانة . وكان « ليوتي » يدرك هذه الأمور بجبلته : « إن مثل هذا الأمر ليس لنا فيه من حيلة » ، كان يقول ذلك ، وسرعان مايشعر الثائر ، برقة وحزم ، أنه قابض على زمامه .

ويؤتى الرئيس الأنباء عن روح العمل والعاملين ، وعن آثار أوامره التي يصدرها ونتائجها ، بوساطة ما يقدم اليه من تقارير . وهو لا يثق بهذه

التقارير دائما . ولقد عرفت شيخاً من رجال الصناعة كان يقول : « إن كل الأخبار باطلة، إنه لم يكن مخطئا ، فكلها تقريبا مغالى فيه، مشوه، مبتور . والوسيلة الوحيدة لكى لا تخدع عن الحقائق ، هى أن تذهب من وقت لآخر لتقف عليها بنفسك . فالتهديد بمثل هذه الزيارة وخشيتها يأتيان عجبا . وبغتة تصبح التقارير صادقة صحيحة . ويروى المارشال بيتان أنه حين كان قائداً لإحدى الفرق فى سنة ١٩١٥ ، كان يتولى قيادة جبهة كان الجيش يطالب بالهجوم فيها منذ عدة أسابيع . ومنذ عدة أسابيع كذلك أذاعت البلاغات الرسمية تقدماً يسيرا قدره خمسون مترا ، وبعض الخسائر ، بالطبع ، على شىء من الجسامة ! ولما كان الجنرال بيتان أحكم من أن يثق بالأنباء ثقة عمياء ، فقد توجه إلى الخط الأول ومعه آلة مسح الأراضى ، وأخذ رسما لمقدمة الجيش فى تاريخ معلوم ، وقاس البعد بين هذا الخط وبين المقدمة الحالية ، وتبين فى الحال زيف البلاغات التى كانت تذاع لإرضاء قيادة الجيش ، وأن التقدم يكاد أن يكون وهميا . . . فالبيانات الإحصائية التى تقدم للرئيس هى دائما تقريبا إما تموه بقصد التملق والزلفى وإما أن تصور تصويرا يؤيد نظرة معدها ومقدمها .

وقد يحب الرئيس الحازم ، بل هو دائما يحب ، أكثر من الرئيس المتهاون أو الضعيف . وخير وسيلة تجعل الحزم مقبولا هى أن لا يبيح الرئيس التقرب منه إلا لأولئك الذين يحوزون ثقته وحسن تقديره . فكل إنسان يتسع صدره للنقد والتثريب مادام ليس فى خلقه وعقله ما يؤآخذ عليه . وإنها لسياسة حكيمة أن يقول فى الحال وبشدة ما فى قلبه . فإن تأنيباً قاسيا ، ولكنه سريع عابر ، أقل أذى وضراً من استياء مكتوم وموجدة دفينة .

وينبغى على معاونى الرئيس أن يعلموا أنهم إذا لم ينفذوا الأوامر فسيضحون بأنفسهم ، أما إذا أدى بهم تنفيذ أحد الأوامر إلى كارثة ، فسيكونون محميين ولا لوم عليهم ولا هم يسألون . فالرئيس الحق يتحمل كل مسئولية أفعاله .

وكما أن الملك يجب أن يكون الحامى الطبيعى لعامة شعبه من جشع كبار القوم وسطوتهم ، فكذلك ينبغى على كل رئيس أعلى أن يكون حريصا على أن يعامل مساعدوه أتباعه ، موظفين كانوا أم عمالا أم جنودا أم بحارة ، معاملة عادلة نبيلة . وهذا عمل شاق عسير ، فواجب « رئيس العمل » هنا واجب مزدوج : إذ ينبغى عليه أن لا يضعف من سلطان معاونيه ، وينبغى عليه أن لا يسكت على تعسف هذا السلطان وسوء استعماله . ولا توجد طبعا أية قاعدة دقيقة تهديه سبيلا سويا فى سلوكه وتصرفه . فالإنسان فى هذا ، كما فى كل شىء آخر ، كأنما يسير على الحبل المشدود ، يميل بعصا الإتزان تارة ذات اليمين وتارة ذات الشمال كيما يحفظ توازنه . ولقد كان المارشال بيتان مثلا طيبا لهذا الإتزان حين كسر فى سنة ١٩١٧ من حدة العصيان والتمرد بمزيج من الصرامة والعدالة والمهابة والعطف .

فواجب على الرئيس أن يحدس التذمر والإستياء كلما كان ذلك فى الإمكان ، وأن يعالج الغبن والعسف من قبل أن يشكو الشاكون . ولكى يتسنى له ذلك ، يجب أن يكون على اتصال بأولئك الذين يسوسهم . أن يبذل من جهده ومن نفسه ؛ أن يذهب إلى الخنادق إذا كان قائداً ، وأن يحضر إلى المصنع مع العمال إذا كان رئيس عمل ، وأن يعرف أولئك الذين يرأسهم .. ويجب على الرئيس أن يكون على شىء من طلاقة الخيال فيسعى فى

تصور حياة بجميع من هم تحت رئاسته ليجنبهم ما يمكن تجنبه من الآلام أو المتاعب أو الهموم . إن السر فى أن يحب هو أن يحب ، وأن يعرف مهنته أفضل مما يعرفها أى شخص آخر . إن الإنسان ليحتمل أن يقاد ، بل إنه ليود أن يقاد ، على شرط أن يحسن قياده .

## ٥ — فن الحكم

الحكم والرياسة ، فى وقت السلم ، فنان متمايزان . فالرياسة هى إرشاد جماعة من الناس ، يخضعون للرئيس بناموس ما ، وتوجيههم نحو غاية معينة . فقائد الجيش يعلم أنه (فيما عدا حالات نادرة من التمرد) سيكون مطاعاً من جنوده . إنه يعرف كذلك ، معرفة واضحة كل الوضوح ، غرضه ، وهو الدفاع عن هذا الإقليم أو الإستيلاء على ذاك . ورئيس العمل يعلم أن عليه أن ينتج ، بثمن معلوم ، قدرا معينا من البضائع ، وأنه لو فشل فى هذا أودى بنفسه إلى الدمار وبعماله إلى البطالة ؛ وفيما خلا بعض آونة من الإختلال والحماقات الاجتماعية ، فإنه يكون ، مع احترامه القوانين ، سيدا لسفينته . . والدكتاتور ، كقائد الجيش ، إنه يقود أكثر منه يحكم .

أما رئيس الحكومة فى بلد حر فعليه هو أن يرشد ويوجه ، نحو أغراض مبهمة غير واضحة ولا مستقرة ، أفعال جماعة من الناس لا شىء يلزمها بطاعته (اللهم إلا الخوف من حالة الفوضى ، وهو خوف يزول فى أوقات الهناءة والرفاهة) . إنه لا يستطيع أن يأتى بحركة دون أن يرى نفسه هدفا لنقد مرير من معارضة تزداد قسوة وعنفا بقدر ما تتمنى أن تحل محل أولئك

الذين تحكم عليهم وليس معاونوه أتباعاً له يبجلونه ، وإنما أنداداً له وخلفاء .
وفى البلاد الديموقراطية تبدو وظيفة رئيس مجلس الوزراء للمشاهد النزيه عن الغرض من أشق الوظائف فى العالم ، وإن المرء ليشوقه ، حين يقرأ بعض المآخذ والتوجيهات ، أن يتساءل مثل « فيجارو » (١) : هل يعرف القارىء ، فيما يختص بالسجايا والصفات التى ننشدها فى رجل الدولة ، كثيرين من الصحفيين جديرين بأن يكونوا وزراء ؟ »

فما هى المزايا التى يجب أن نرجو توافرها فيمن نثق به فى تدبير شئوننا ؟ إن أولى هذه المزايا هى « الحس بالممكنات » فمن العبث ، فى السياسة ، القيام بمشروعات ضخمة جليلة ، إذا كانت هذه المشروعات ، فى بلد ما وفى الوقت الراهن ، لا يمكن تنفيذها . فحركات الشعب الحر هى فى كل آن نتيجة لتوازى القوى . فرجل الدولة العظيم هو ذلك الذى يستطيع أن يقدر هذه القوى ويقومها بدقة وإحكام ويقول ، دون أن يقع فى أخطاء جسيمة : « إن فى إمكانى أن أذهب إلى هذا الحد ، ولكن ليس أبعد من ذلك . » وهو يحذر أن يحكم من أجل طبقة واحده ، ويتبصر ما لا يمكن تجنبه من إنفعالات الطوائف المهضمة . وكما أن الطبيب الفطن الحكيم لا يصف لمريضه ، ليعالجه من وعكة طارئة ، دواء يصيبه بعلة فى الكبد مزمنة ، فكذلك السياسى الأريب لا يهدىء من ثائرة العمال بأن يثير غضب الطبقة المتوسطة ، ولا يتملق الطبقة المتوسطة على حساب العمال . إنه يعتبر الشعب الواحد كجسم حى ضخم ،

(١) شخصية ساخرة ابتدعها بومارشيه لتلعب أدوارا كبيرة فى عدة من مسرحياته الهزلية .

أعضاؤه جميعا متضامنة متكافلة . إنه يقيس كل يوم حرارة الرأى العام ويعمل على راحة البلاد إذا ارتفعت الحرارة واشتدت الحمى .

ولكنه إن حسب للرأى العام حسابا ، فهو يعلم كذلك أنه يسهل على الرئيس القوى الإرادة الذى يعمل بحذق ومهارة تحويل هذا الرأى العام وتحويره . وينبغى على الرئيس أن يكون قد سبر قدرة الجماهير على التزام الهدوء والحيدة . فللجماهير سورات من العنف وغضبات . واحتجاجاتهم قوية ، وقد تكون مشروعة إذا كانت الحكومة بأفعال خرقاء قد ألقت بهم إلى حياة شقية ، أو حرمتهم حريتهم الموروثة ، أو قلقلت حياتهم الوجدانية والعائلية . ولكنهم يسلمون قيادهم راضين إلى الرجل الذى يعلم الى أين يقودهم ، والذى يظهر اهتماما بينا واكتراثا بصالح الوطن والذى يوحى اليهم الثقة به والاطمئنان اليه .

وأن يكون للرئيس الحس بالممكنات ، ليس معناه فحسب أن يعرف أن أفعالا معينة مستحيلة ، فهذه ميزة سلبية تماما ، وإنما أن يعلم كذلك أنه ، بالنسبة للرجل الجسور ، توجد أفعال تبدو فى الظاهر صعبة كل الصعوبة شاقة كل المشقة ولكنها فى الواقع ممكنة . فرجل الدولة العظيم لا يقول : « هذا الشعب عاجز خائر ؛ ونظمه وأوضاعه توهنه وتشله » . وإنما هو يقول : « إن هذا البلد قد أغفى وأخذته سنة من نوم ؛ وإنى سأنبهه من غفوته وسأوقظه من نومه . إن هذه النظم هى كما وضعها الناس ؛ وعند الحاجة فإنى سأحورها وأبدلها . »

ولكن قبل كل شىء : ليست الإرادة هى قول ما نريد ، بل هى الفعل .

والسياسيون العاديون يصرفون أكثر وقتهم صفاء في وضع المشروعات وعرض المبادىء . إنهم يتكلمون عن «إصلاح البناء» ، ويتصورون نظما إجتماعية خالية من كل عيب ونقص ، وخططا لسلام دائم أبدى . ولقد قلنا عند الكلام في فن التفكير ، إن وضع المشروعات ليس عملا أبداً . و «القهاوى التجارية» تتكلم ولكنها لاتحكم . إن رجل الدولة الحق يعلم كيف إذا لزم الأمر يفعل ، في أحاديثه العامة ، من المبادىء تحية مؤدبة رقيقة ، ويهدىء ثائرة حراس المعابد بأن يذكر لهم كلمات من الطقوس الدينية : وفي الواقع ، إنه لأحرى به وأولى أن يعنى بسد الحاجات الحقيقية لأمته . إنه ليقول مثلا : «في هذا العام ، عام ١٩٣٩ ، يجب على فرنسا قبل كل شيء أن : تعتصم بالسلام ، وتؤمن وقايتها الجوية ، وتعزز طيرانها ، وتزيد إنتاجها ، وأخيراً أن تعيد تنظيم ماليتها» . وهو يتجه نحو هذه الأغراض المعينة المحددة من أقصر طريق مباشر يبدو له . . أيجد الطريق مغلقة ؟ إنه يرضى إذن بالأوبة . فالغرور والخيلاء ، والزهو العقلي ، والتشبث بنظام خاص في العمل السياسي نقص كبير وضرر شديد . فكثير من رؤساء الأحزاب مستعد للتضحية بالوطن في سبيل مذهب أو مبادىء معينة . أما الزعيم الحق ، فإنه يقول : «فلتزل المبادىء ولتبق الأمة !» .

أسيكون عمله ناقصا ؟ أسيبقى بعض الظلم والبغى ؟ إه ! إنه لعليم بذلك ، فكل عمل معقد مركب فهو ناقص . وفي الكتاب الجميل «جورج برنانو» : يوميات واعظ القرية ، يحاول الواعظ الشيخ إفهام قسيس شاب أنه لا يمكن حتى للقديس أن يجعل من «ابرشية» مجمعاً للأبرار الصالحين . ولكي يوضح

الصورة فى ذهنه أخذ الشيخ يقص عليه قصة الأخت البلجيكية حارسة الكنيسة. التى أرادت أن تجعل كنيسة القرية تلمع من النظافة وتتألق كفاعة استقبال الزائرين فى أحد الأديرة : « إيه ! لقد كانت عاملة دائبة مجدة ، الشيطانة العجوز الصغيرة ! فعكفت على الصقل والطلاء والدعك . وفى كل صباح لابد من أن تجد طبقة جديدة من الغبار تعلو المقاعد ، وواحداً أو اثنين من « عش الغراب » حديثين كل الحداثة ، على بساط المرتلين ، وكثيراً من نسيج العنا كب ». إيه ياولدى ، نسيج عنا كب يصنع منه جهاز عروس ! » ولم يثبط هذا من عزيمة الحارسة أو يوهن من همتها ؛ فهى لا تنى تكنس وتمسح . وبدأ الفطر يعرش فى خطوط طويلة . وتوالت أيام الآحاد التى تتسخ منها الكنيسة ، . ثم أعقبتها الأعياد التى انقضت بالقضاء على حياة الأخت الطيبة . ثم اختتم الشيخ بقوله : « وبمعنى واحد ، إنها شهيدة ، ولا يمكن أن نرى غير ذلك . وخطؤها ، بالتأكيد ، لم يكن فى أنها كافحت القذارة والوسخ ، ولكن لأنها أرادت القضاء عليهما وإبادتهما ، كما لو أن ذلك كان فى الإمكان . . . فالأبرشية تتسخ قسرا . »

فقارة بأكملها لا بد من أن تكون أقذر وأوسخ ، وعلى الأخص قارة عجوز كأوروبا ، غزتها منذ قرون فطريات عش الغراب وحشرات النمل ، واكتسحتها الضغائن والأحقاد .. ولقد كان « الرئيس ولسن » شبيها بالحارسة البلجيكية . فهو راغب فى أن يجعل من هذا الكوكب العتيق الترابى مجمعاً من المشرعين والفقهاء . لقد كان هذا معقولا ، ومعقولا جداً بغير شك . ولكنه فقط لم يكن ممكناً . ليس أكثر من أنه غير ممكن فى أيامنا هذه تنظيم كل شىء ، وتبصر كل شىء ، وتطهير أوروبا تطهيراً شاملا دفعة.

واحدة . فرجل الدولة العظيم ، كمدبرة المنزل المجدة ، يعلم أن التنظيف أو التطهير عمل يؤدى كل صباح . ويثور نزاع ، فيتحمله صابراً ويتفكر متأملا فى أن نزاعا آخر سينشب حالما يسوى ذاك . وإنه ليرضى بأى اتفاق ؛ حتى ولو كان ناقصاً ، أو مؤقتاً ، لأنه يعلم أن كل شىء ، فى الشئون الإنسانية ، ناقص ومؤقت . ومن تأخير لتأخير ينتصر السلام . عشر سنين ، وعشرون سنة وتنتهى أعباء جيلنا . وعلى الجيل التالى إذن أن يعيش لحاضره دون أن يحمل هماً وغماً لمستقبله .

## ٦ — حقوق الرئيس وواجباته

من حق الرئيس الذى يبدى استحقاقا لرياسته ، أن يكون مطاعا . والجماعة التى تعجز عن احترام رؤسائها وإجلال زعمائها ، جماعة مقضى عليها ، إذ ستصبح عاجزة عن العمل . وحقيقة قد تفضل جماعة من الناس حكم هيئة على حكم هيئة أخرى . فمثلا من الضرورى فى زمن الحرب أن تستبدل الهيئة العسكرية بالهيئة المدنية ، فإذا ماتم الإختيار ، وجب على كل فرد أن يكون وفيا لمركزه الذى وضع فيه . فعدم النظام فى المصانع فيه ضياع واندثار لها ، كما أن عدم النظام فى الجيش يعنى هزيمة الجيش واندحاره .

وكل جماعة تتصارع فيها هيئتان وتتنازعانها ، يحيق بها بالمثل ضرر وشر . فلا أسوأ من أن يتخبط العمال بين الخضوع لنظام رياسة العمل ونظام النقابات أو الهيئات الأخرى . فيجب أن تحدد بوضوح مناطق نفوذ رئيس العمل والنقابة ، فإذا تم هذا التحديد تعطى كل قوة منهما السلطة الكاملة فى دائرتها . أما أن هذا ممكن ، فهو ماتبينه التجربة فى انجلترا وبلاد سكندناوا .

وحق آخر للرئيس ، هو حق الدوام . إذ كيف يستطيع الحصول على نتائج قيمة إذا لم تتح له المدة المناسبة ؟ فقبل أن نحمل رجلا مهمة إدارة إحدى المستعمرات ، أو تنظيم الطيران ، يجب طبعا أن نحيط بكل الحقائق وأن نتحقق من أن من وقع اختيارنا عليه ، هو حقا الأفضل ، ولكن متى اخترناه ، وجب أن نتيح له الوقت ليكتسب بعض الخبرة والمران . وفيما عدا الحالات التى تبين فيها بالبرهان وبطريقة واضحة أننا قد خدعنا ، وأن الرجل الذى اخترناه ليس خليقا باختيارنا ، ينبغى علينا تعضيده وتثبيته . وكم من روابط عديدة قد عقدتها ووثقتها المدة وطول الزمن فجعلت مزاولة السلطان سهلة يسيرة . وعندما سئل المارشال ليوتى عن سر توفيقه فى مراكش ، أجاب : « لقد قضيت بها ثلاث عشرة سنة . »

ولكن كيف يمكننا التوفيق بين حق الرئيس فى الطاعة ودوام الرياسة وبين حقنا فى مؤاخذته ونقده ؟ فالرئيس الذى لا يحد شىء من سطوته وسلطانه ، ألا يستبد سريعاً بالحكم ثم يطغى ويتكبر ؟ لقد ابتدع « ألدوس هكسلى » « لعبة القياصرة » . فراح يسأل كلا من صحابه : « بأى من القياصرة يتمثل لو أنه أعطى فى الغد السلطان جميعاً ؟ » فما أقل الأخلاق التى أمكنها الصمود لهذا الإختبار . . . ولا شك فى أن النقد لازم كل اللزوم . ولكن إلى أى حد يمكن مزاولته وإلى أى حد ينبغى مزاولته ؟

وفى الجيش ، وبمعنى عام ، فى الأعمال العاجلة التى لا تحتمل الأخذ والرد ، تكون الطاعة واجبة كل الوجوب . ولا يمكن أن يوجه النقد إلا من أعلى . أما فى الحياة العادية فى بلد حر ، فإن حق النقد مكفول للجميع . ومرة أخرى يجب لممارسة النقد إتباع قواعد معينة تعلمها

التجربة للناس . وإنه لشيء حسن أن يمكن تغيير الرئيس من وقت لآخر ، لو أن الأمة عبرت عن إرادتها هذه بوضوح ؛ وإنه لقبيح أن يمكن ثلم سمعته ، وقبيح أن يبدل كثيراً ودائما . ومن غير المقبول أبداً أن يدعى رجل الشارع حقاً فى أن يفرض عليه القوانين . ولكى نقيم حرية حقة ، لا يلزمنا ثقافات حرة فحسب ، وإنما كذلك تعليم أخلاقى . فإلى أن يتعلم كل منا أن يحترم الرئيس الشرعى ، وأن يحتمل المعارضه ، وأن يصغى إلى براهين الخصم وحججه ، وأن يضع ، على الأخص ، نفع البلد فوق العواطف والشهوات المغرضة ونفعه الخاص ، عندئذ نصبح جديرين بأن نكون شعباً حراً . فالحرية ليست حقاً للإنسان لا يمكن فسخه ، وإنما هى ظفر مرجو ، ولكنه عسير ، يجب أن يجدد كل يوم .

وهذه الثقافة الأخلاقية ألزم كذلك لأولئك الذين يرأسون . فيجب أن يكون للرئيس ، وهو بعيد عن كل رقابة ، وجدان حى وشعور قوى بواجباته . فالرؤساء لا يمكنهم الإحتفاظ بسطوتهم إلا إذا علموا كل يوم أنهم أهل لها جديرون بها . وليس برئيس ذلك الذى ، وقد تبوأ مكانة الصدارة فى الجماعة أو العمل ، لا يسعى إلا إلى خدمة منافعه الخاصة . وليس برئيس ذلك الذى ، وقد قبل الرياسة وإرتضاها ، يفكر فى متعه وملذاته أكثر مما يفكر فى مسئولياته . وليس برئيس ذلك الذى ، وقد ملك قياد الآخرين ، ينساق إلى الغضب والحقد ، أو على العكس إلى الملاينة والمحاباة . فعمل الطبقة القائدة ، هو أن تهدينا الطريق إلى المجد والعمل الكريم . فليست الرياسة تميزاً وتفضيلا ، إنها تشريف وتكليف .

# ٥

# فن الشيخوخة

« قليلون هم من يعرفون كيف يهرمون ».
( لاروشيفوكو )

« والمتعة الكاملة تأتى مع المساء ...
« لمن يعرف كيف يستثمر النهار ... ».
( كورنيل ).

إنه لأمر عجيب أن يهرم الإنسان ، عجيب غاية العجب حتى أنه ليصعب علينا أن نصدق أننا سنبلغ الكبر ، أو أن الكبر يمكن أن يبلغنا كما بلغ الآخرين . وقد بين « بروس » أروع تبيين ، فى كتابه « عودة الزمن » ، الدهش الذى يعترى نفوسنا عندما تفجأنا المصادفة ، بعد ثلاثين أو أربعين عاماً ، بمقابلة جمع من الرجال والسيدات كنا نعرفهم شبانا يافعين مثلنا حينذاك . فيقول بروس : « لم أدرك ، أول وهلة ، لم ترددت وتشككت فى التعرف على رب البيت وأضيافه ، وكيف بدا كل منهم وكأنه قد عفر رأسه بالبياض ( البودرة ) ، ومن ذا الذى غيرهم التغيير كله ... وكان يبدو على الأمير أنه أيضا يخضع نفسه للمراسم التى رسمها لمدعويه : فالتحى بلحية بيضاء ناصعة وراح يجر فى قدميه نعالا بهظتهما كأنها نعال من رصاص . وكان شارباه شديدى البياض حتى كأنهما قطعة من الجليد الذى يجلل غابة « بتى بوسيه » ؛ ويظهر أنهما كانا يضايقان فمه الجامد ، فكان عليه أن يرفعهما » .

ثم لقى مارسيل بروس واحداً من أصدقاء الشباب ، كان يعرفه منذ فجر حياته ، فقال : « كان زميلى وتربى ، وكان شابا فتياً ، وكنت أقيس شبابى ، الذى لا أظننى حييت منذ فارقتنى أيامه ، بشبابه الغض الندى . فأذهلنى أن

ألحظ على وجهه بعضا من تلك العلامات التي هي في الواقع سمة الشيوخ المسنين. وأدركت السبب، فإنه في الحقيقة شيخ مسن، وأن الحياة تصنع من الفتيان الذين تمتد بهم السنون شيوخا هرمين ».

نعم، فإنه فقط بقياس الآثار التي يرسمها الزمان على من هم في مثل سننا من الرجال والنساء، نرى، « كما لو أننا ننظر في مرآة »، ما أصاب محيانا نحن وقلبنا. فإننا نظل شبانا في أعيننا التي تغيرت معنا على مر الزمان؛ ونحتفظ بحياة الشباب وآماله؛ ولا نتصور الموضع الذي يعينه لنا الشبان في سلم العمر. وقد تصدم نفسنا أحيانا كلمة. فيدعونا كاتب شاب: « أستاذي العزيز »، بينما نحن نظن أننا معاصرون له وزملاء. ومن التجارب الأشد إيغالا في الألم، أن نسمع البعض يقول عن فتاة شابة: « يالها من حمقاء مجنونة؛ قد تزوجت من شيخ بلغ من الكبر عتياً، في الخامسة والخمسين من عمره قد اشتعل رأسه شيباً! » فنفكر في أننا قد بلغنا الخامسة والخمسين عاماً، وأن لنا شعراً أبيض من المشيب، وقلباً لا يريد أن يهرم أو يشيخ.

## ١ — خط الظل

متى تبدأ الشيخوخة؟ إننا نظل أمداً طويلا نعتقد إمكان الإفلات منها، فالعقل مابرح نشيطاً، وما زالت قوانا تبدو سليمة صحيحة. ولا نفتأ نقيم البراهين والإختبارات: « ألا أصعد، بنفس الخفة والسرعة، هذا السفح الذي كنت أتسلقه إبان شبابي الأول؟... نعم! . إني أنهج وأنبهر

قليلا عند بلوغ القمة ، ولكننى قد قطعت المرحلة فى نفس الوقت الذى كنت أقطعها فيه من قبل . ومن جهة أخرى ، ألم أكن أبهج وأبهر حين كنت شاباً فتياً ؟ » .

والانتقال من الشباب إلى الشيخوخة بطىء كل البطء حتى يكاد الإنسان أن لا يشعر بالتغير . وهكذا حين يخلف الخريف الصيف ، ثم يخلف الشتاء الخريف ، فإن ذلك يحدث بتحول تدريجى يدق على الملاحظة اليومية فلا تلحظه . ومع ذلك ، فكالجيش الذى حاصر « ماكبث » ، يتقدم الخريف ، متخفياً بأوراق أشجار الصيف . وتهب ذات صباح أعاصير « الترنادو » فتنزع القناع الذهبي ويبدو من ورائه هيكل الشتاء الأعجف الهزيل . أما أوراق الشجر التى نكاد نعتقد أنها ذبلت وماتت فى خضرة حداثتها ، فلم تعد تتماسك بأفنانها إلا بخيوط دقيقة رفيعة . إن العاصفة تكشف عن الشر ؛ ولكنها لا تخلقه .

والأمراض هى العواصف التى تهب فى غابات البشرية . وقد يبدو لنا رجل من الرجال أو امرأة من النساء فى نضارة الشباب على الرغم من سنهما المتقدمة . فنقول « إنها لمدهشة » و « إنه لغريب ! » ، وإننا لنعجب بنشاطهما وحيوية عقلهما وحرارة حديثهما . ولكننا نراهما ، غداة يوم أفرطا فيه بعض إفراط ، لا يقتضى الشاب سوى صداع بالرأس أو إصابة ببرد ، نراهما وقد عصفت بهما عاصفة من الإحتقان أو التهاب الرئة . وفى أيام معدودات ، يذبل الوجه ، وينحنى الظهر ، وينطفىء بريق العينين . فلحظة واحدة تجعل منا شيوخا هرمين ، ذلك بأننا إنما نهرم ، دون أن نشعر أو نعلم ، من زمن طويل .

فما هو ، بالنسبة للإنسان ، تاريخ الإعتدال الخريفي ؟ يقول « كونراد » ( Conrad ) إنه ، إبتداء من سن الأربعين ، « يلمح كل فرد أمامه خطاً من الظل ، فيعتريه لعبوره رعش ، ويعتقد أنه قد خلف وراءه عهد الشباب السعيد » . وإنه لأحرى بنا في أيامنا هذه أن نضع خط الظل في سن الخمسين تقريباً . وإن أولئك الذين يجتازونه ، مهما كانوا من الخفة والثبات ، ليعرفون حين يمرون به تلك الرعدة الخفيفة التي وصفها « كونراد » ، ويعانون أزمة من اليأس قصيرة الأمد .

« لقد ناهزت الخمسين » . ذلك ما كتبه ستندال ( ويا للإختيار الغريب ) على حزام سراويله ، وفي نفس اليوم عني بوضع قائمة بالنساء اللاتي أحبهن . ومع أنه قد وفق ، كما لم يوفق مثله أحد في العالم ، في تزيينهن وترصيعهن بلآلىء « تبلور الحب » ، فقد كن عاديات في مستوى غير عال . لقد تخيل في سن العشرين ، لحياته الغرامية ، مقابلات رائعة جليلة ، كان يضفي عليها من تفكيره الغرامي ويعيرها من الأهمية ما يتفق وعواطفه . ولكن بطلاته اللاتي كان يشتهي حبهن لم يجئنه إلا في الكتب حيث خلقهن هو نفسه . فعند عبوره خط الظل راح يأسف ويحسر على عشيقات لم يكن له يوماً ، ولن يناله بعد ذلك أبدا .

ويفكر الكاتب : « لقد شارفت الخمسين » . فماذا فعل ؟ وماذا كتب وعم عبر ؟ إنه ليبدو له أنه لا يزال أمامه كل شيء ليقوله ويتحدث عنه ، وأنه بعد لأى قد بدأ يتبين ما يجب عليه كتابته من مؤلفات . ولكن كم من أعوام العمل بقيت له ؟ إن قلبه قد ساءت ضرباته ، وإن بصره ليكل في الليل

فيأبى القراءة . عشرة أعوام ؟ خمسة عشر ؟ « إن الفن لطويل فسيح ، وإن الحياة لقصيرة وجيزة » . هذه الفكرة التى كانت تتبدى له من قبل صائبة ولكنها شائعة مبتذلة ، تصبح فجأة ملأى بالمعانى . أسيكون لديه ، مثل بروس ، فراغ من الوقت « ليبحث عن الزمن الضائع » ؟

إن الشيخوخة ، زيادة على مشيب الشعر وتغضن الوجه ، هى ذلك الشعور بأن الوقت قد تأخر بنا كثيراً ، وأن دورنا قد لعبناه ، وأن التمثيلية بعد الآن إنما تمت إلى جيل آخر . وليس الشر الحقيقى للكبر هو وهن الجسم ، بل هو بلادة النفس وجمودها . فإن زوال القوة عند عبور خط الظل لأقل من زوال الرغبة فى العمل . فهذا الشغف بالبحث الذى نجده فى الشباب ، وهذه الحاجة الملحة إلى المعرفة والفهم ، وهذا الأمل الكبير الذى يوحى بالكشف عن كل جديد ، وهذه القدرة على الحب دون تحفظ ، وهذا اليقين بأن العقل والخير يتحدان بالطبع بالجمال ، وهذا الإيمان بكفاية العقل ، كل هذا ، أيمكن الإحتفاظ به بعد خمسين عاما من التجارب والمخاتلة والغرور ؟

وفيما وراء خط الظل تدخل العقول فى منطقة يشع فى أرجائها جميعاً ضوء هادىء معتدل فترى الأبصار فيها ، دون أن تزيغ أو يخلبها وهج الرغبة وبريقها ، الأشياء والكائنات على حقيقتها . وكيف يؤمن الإنسان بالكمال الخلقى لحسناوات النساء وقد أحب إحداهن ؟ وكيف يعتقد فى التقدم والرقى وقد تحقق ، طوال حياته الشاقة ، من أنه ما من تغيير شديد ينتصر على الطبيعة البشرية وأن أقدم العادات وحدها ، وأعتق التقاليد ، إنما تكفل للإنسانية ملجأ واهياً من الحضارة ؟ ويروح الشيخ الهرم يفكر : « ما الجدوى ؟ » . ولعل

هذه من أضر القواعد به وأعظمها خطراً ، فبعد أن يقول : « ما جدوى الجهاد ؟ » ، سيقول يوما : « ماجدوى مغادرتى البيت ؟ » ، ثم : « ما جدوى مغادرتى غرفتى ؟ » ، وبعدها : « ما جدوى مغادرتى الفراش ؟ » وأخيراً : « ما جدوى الحياة ؟ » ، وهو قول يفتح الأبواب إلى الموت .

لقد رأينا أن فن الكبر هو فن الإحتفاظ ببعض الأمل ، ولكن قبل أن نبين كيف يمكن هذا ، يجدر بنا أولا أن نصف الكبر فى الحالة الطبيعية .

## ٢ — الحالة الطبيعية للكبر

فيما خلا الكائنات العضوية البسيطة جداً ، التى تفلت من الموت بانقسامها إلى كائنين جديدين ، فإن كل كائن حى سيبلغ الكبر عند سن تختلف باختلاف الأجناس . لم لاتعرف الحشرة قصيرة الأجل سوى ساعتين من الحياة ، بينما تبلغ منها السلحفاء والببغاء المئتين من السنين ؟ ولماذا تتاح الحياة ثلاث مئين من الأعوام لأنواع من الأسماك كالكراكى[1] والشبوط[2] ، وثلاثين عاما فقط لبيرون وموزار ؟ ولكن « من ذا الذى يستطيع أن يحيط بعلم الله إلا بما شاء ؟ » . وإن متوسط حياة الإنسان الذى كان ، من منذ قرن من الزمان ، حوالى الأربعين عاماً ، قد قارب فى وقتنا الحالى ، وفى أكثر البلاد حضارة ، الستين عاما ، وهو تغير سريع ، يسمح لنا بالظن أنه ، إذا لم تأت حروب أو ثورات تقف التقدم الصحى ، تصبح سن المائة ، للقرن القادم ، هى السن الطبيعية العادية .

وكلما كانت الكائنات أقرب الى الطبيعة ، كلما ازدادت معاملتها للشيخوخة

(١) Brochet (٢) Carpe

قسوة . فالذئب الهرم يبقى محترما مهابا مادام قادرا على أن ينال فريسته ويغتالها . ولكن قد صور لنا كبلنج فى « كتاب الغاب » غضبة أجراء الذئاب الصغيرة التى أثار سخطها أن يقودها إلى النزال ذئب طال به العمر وفقد قواه . . وسيهلك السبع الهرم يوم يعجز عن نيل ظبيته . فإن أحد صغار السباع سيأتى اليه ليضع حدا لوحدة العاجز الأدرد . . والجماعات البدائية تسلك فى هذا مسلك الوحوش . ولقد وصف أحد الرحالة فى إفريقية حالة الزعيم الشيخ المذعور الذى قال له بلهجة المتوسل : « ألا أعطيتنى قليلا من الصبغة لشعرى ؟ فإنهم لو رأوا المشيب فى رأسى لقتلونى » . . وعند بعض قبائل « البحار الجنوبية » تصعد الأسرة بشيوخها الفانين إلى قمة شجرة من أشجار جوز الهند ثم يهزون الشجرة . فإذا كان الشيخ مازال قادرا على التشبث بها ، كان من حقه أن يعيش . أما إن سقط ، فلقد قضى فى أمره ونفذ فيه القضاء فى الوقت عينه .

وتبدو لنا هذه الطريقة وحشية قاسية ولكن لدينا ، نحن كذلك ، أشجارنا . فالأحاديث العامة ، والمحاضرات والتمثيل هى إختبارات يقول بعدها الشعب فجأة عن السياسى أو الكاتب أو الممثل : « لقد انتهى » . وفى أغلب الحالات يكون هذا حكما بالموت ، سواء لأن الشقاء يتبع الإعتزال ، أو لأن اليأس يفضى إلى المرض . والحرب هى شجرة جوز الهند بالنسبة للقواد . والنساء الصغيرات أشجار ملساء خطرة ينزلق عليها الشيوخ الفاسقون . ورئيس الدولة الذى يجعل وزراءه يقفزون من بين أطواق مشتعلة ليتيقن من شباب مفاصلهم ، إنما يزاول سياسة شجرة جوز الهند . وعند الشعوب الأقل همجية لا يحكم على المسنين بالموت ، ولكنهم يعاملون أحيانا معاملة قاسية . ويروى مونتانى فى ذلك روايات فظيعة : فهذه قصة الطفل الذى رآه أبوه ينحت قصعة من الخشب ، فحين سأله عنها أجاب :

« إنها لك عندما تصبح هرما مثل جدى . » . وتلك قصة الإبن الذى راح يجذب أباه الشيخ من شعره حتى الباب ، فصاح به الشيخ فجأة : « قف ! إننى لم أسحب أبى إلا إلى هذا الموضع ! »

وفى عالم الريف ، القريب من الحالة الطبيعية ، فالقوة ، فى أغلب الحالات ، هى التى تنظم كذلك علاقات الأجيال . أما فى عالم الحضر ، فيجب أن ندخل فى حسابنا « سن » الجماعات . ففى أوقات الثورة والإنقلابات السريعة ، يكون فوز الشباب مؤكداً ، لأنه أسرع تأقلماً وأحد تفكيرا . ولقد فهم الشباب ، فى عصر الثورة الفرنسية ، حرب الجماهير والجماعات ، بينما ركن الجيل القديم إلى ما يفهمه من مهنة الحرب . وهو يقود اليوم الطائرات كما كان يسوق بالأمس السيارات . وفى وقت الأزمات العصبية ، لا يجد أمامه ، كما فى الحضارات الراسخة ، مراكز ومكانات ، أو سلطة للسن وسلطان للمال . إنه يمثل القوة الوحيدة ويؤيد الدعاة الذين ، بتقديمهم له غايات بسيطة ، يزجون اليه آمالا خالصة عظيمة .

أما الجماعات العتيقة الكبيرة فإنها على العكس تميل إلى حكم الشيوخ الفانين [1] . فالشيوخ فيها يحكمون فى المجالس وفى الجيش لأنه ، فى عالم لم يتغير منذ زمن طويل ، يكون للتجربة والخبرة قيمة كبيرة . وفى بلد ، كانجلترا ، له متاعبه السالفة وتحكمه العادات والتقاليد ، فإن طول البقاء يأخذ مكان القدرة والكفاية . ولقد كان الشيوخ فى الصين قديما موضع عطف ورعاية

---

Gérontocratie (١)

كريمة نبيلة . » فيجب أن لا يرى رجل ذو شعر رمادى بدأ يخطه المشيب يحمل حملا فى الطريق » . هكذا كان يقول الصينيون . فالرغبة فى البر بالوالدين فى كبرهما كانت من أقوى المشاعر لديهم . وإنه لمن أكبر المآسى أن يكون الإنسان غائبا عندما يحضر والديه الموت . وكان للشيوخ وحدهم حق الكلام فى الإجتماعات والمجالس . وكانوا يعيشون فى بيوت أولادهم معززين مبجلين أعظم إعزاز وأعمق تبجيل . وكان من الطبيعى المألوف أن يتدخلوا فى حياة الزوجين الشابين . وفى كتاب شائع ، يدرس فى جميع المدارس الصينية ، يقرأ القارىء : « ينبغى على كل إبن ، فى أشهر الصيف ، أن يجلس بالقرب من والديه ومعه مروحة ليبعد عنهما القيظ والذباب والبعوض . وفى الشتاء ، يجب أن يعنى الإبن بأن تكون أغطية الفراش دافئة ، وأن يرعى جيدا تثقيب الموقد ؛ وعليه أن يلحظ ما بالحائط من ثقوب أو شقوق ، وما بالباب من فلوق ، كى يكون أبواه فى حمى من تيارات الهواء ، وأن يقضيا كل يومهما ناعمين سعيدين[١] . »

هذه العواطف ، وهذه الرعاية تنزع إلى الزوال فى الصين الحديثة . وفى كل نظام حديث تكون القوة أثمن وأعز من حكمة السلف . غير أنه ما من نظام يمكن أن يظل حديثا وما أن يعتريه القدم حتى يتولد إحترامنا للرجال الناضجين ، ثم للشيوخ المسنين . والزعيم الذى أقام صرح حياته العملية على فكرة الشباب يفقد هو نفسه الشباب . وإنه ليجاهد زمنا طويلا ، مثل

---

(١) لن-يو تانج فى كتاب « أهمية الحياة » Lin—yutang, The importauce of living

الذئب الهرم ، فى إخفاء مجده الزائل ونجمه الآفل . وإنه ليحتفظ بكيانه الطبيعي فى صورة حسنة ، وإن له لجرأة الشباب وإقدامه ، وإنه ليتظاهر بالقسوة والشدة التى لم يعد يؤمن بها كثيرا . ولكن ، إن عاجلا أو آجلا ، سيجعل منه الزمان شيخاً فانياً ، ثم جسداً باليا .

وهكذا ، تبعا لنظام طبعى ، يتبادل الحكم الشبان الحدثان والشيوخ الهرمون . فماذا نرتجى ؟ إن كل أمنية عبث لاطائل وراءه . إنما هى الظروف التى تضع لنا الحلول . فالتغيرات السريعة ، والإبتكارات الغريبة الشاذة : إنتصار للشباب والإستقرار والثبات ، والتقاليد الراسخة : فوز للشيخوخة . ولعل أفضل سياسة للأجيال المختلفة هى سياسة هوميروس للمحاربين : الأبطال الشبان لقيادة الجيوش الفعلية ؛ وبقربهم وزير الدولة ، « نستور » الشيخ الحكيم .

## ٣ — آفات الشيخوخة

تلك هى الناحية الإجتماعية للمسألة . وهى بالنسبة للفرد ، أكثر تعقيداً . فإنها تصل إليه محفوفة بالمتاعب والصعاب . ولكن أهى متاعب لا يمكن دفعها وصعاب يتعذر تذليلها ؟ لا أعتقد ذلك ، وإنما يجب ، لقهرها ، مواجهتها وجها لوجه . وإذن فلنصور لوحة كاملة سوداء لكل المساوىء والشرور التى تحف بالكبر . وما دمنا بسبيل عرض هذه الصورة المشئومة ، فأرجو ألا ترع ويملأ الخوف قلبك . إنما نحن نحاكى الطبيب الذى يقول لمريضه ، وقد أصابته علة خطيرة تتطلب تحرزاً وحرصا : « هاك ماسيصيبك إن أنت لم تعن بنفسك وتحرص عليها » . ويروح يعد له الأضرار التى يقوق بعضها

بعضا شدة وهولا . ثم يضيف إلى ذلك قوله : « ولكن كل ذلك ، من جهة أخرى ، لن يكون أبدا إذا أنت اتبعت كذا وكيت من سبل الوقاية » . وهناك أيضا ما يمكن أن يكون من أضرار الشيخوخة ، وما يمكن ، من جهة أخرى ، أن لا ينالك منها إن أنت عرفت كيف تتداركها .

فأولا ، فيما عدا بعض الشواذ من الناس ، فالجسم الذى يهرم كالمحرك الكليل المكدود . فإذا عنى به عناية طيبه ، وفحص جيدا وأصلح فى الوقت المناسب ، فقد يقوم ثانية بوظيفته . ولكنه على أية حال لم يعد كما كان : فيجب أن لا نحمله ما لا يطيق من مجهود جسيم . وابتداء من سن معينة ، يصبح العمل شاقاً مضنيا ، فيستحيل أحيانا العمل اليدوى وتتفاوت المقدرة على العمل العقلى . وهناك من أصحاب الفنون من ظل إلى نهاية حياته مالكا لموهبته . فلقد ألف فولتير قصته الفلسفية « الساذج » وهو فى سن الخامسة والستين ؛ ونظم فيكتور هيجو فى كبره أشعارا جميلة بديعة ؛ كما كتب جيته الخاتمة الرائعة لفاوست ؛ وأتم فاجنر « البارسيفال » فى التاسعة والستين من عمره . وفى أيامنا هذه ، أعاد « بول كلوديل » (١) وهو فى الحادية والسبعين كتابة قصته ( l' Annonce faite à Marie ) التى كان قد كتبها فى الخامسة والعشرين . وفى حالات أخرى على العكس ، سرعان ما ينضب معين الوحى ويجف منبع الإلهام . وهذه فى الأغلب حالة أولئك الذين يدينون بموهبتهم لشهوات شباب مؤلم ولا يثير العالم الخارجى اهتمامهم أبدا . فسكون القلب يسبب ، عندهم ، سكون العقل .

(١) Paul Claudel ؛ سياسى وأديب فرنسى ، ولد سنة ١٨٦٨ .

يقول لاروشيفوكو : « الشيخوخة حاكم مستبد ، يحرم ، مهدداً بالموت ، جميع لذات الشباب » . وأولها وآذواها جميعاً : لذات الحب . فالشيخ الكبير ، والمرأة العجوز ، قل أن يستطيعا استهواء حبيب صغير . ومهما كان قلب الشيخ فتياً سليما ، ووجهه نديا نضيرا ، وجسمه قويا متينا ، فإنه من العسير ، وليس من المستحيل ، أن يكون ائتلافه مع فتاة يانعة ، كاملا كما لو كان الإلفان من سن واحدة . ويمكن الإستشهاد بأمثال معروفة : مثل جيته وبتينا ، ولكن لم يكن جيته عاشقا لبتينا . ثم علينا ، علاوة على ذلك ، أن نتساءل أنى يكون ، في مثل هذا الحب ، الإحترام ، والإعجاب ، والتضحية وإنكار الذات ؟ وإننا لنتذكر تلك الأبيات البديعة القاسية لبودلير :

« أيها الملاك المفعم بالجمال ، أتعرف الغضون ، . . .
واضطرام الشيخوخة ، والعذاب الكريه الدفين . . .
خشية أن تقرأ الوله الخفي المكنون . . . .
في عيون طالما روت لنا ظمأ العيون ؟ . . . .
أيها الملاك المفعم بالجمال ، أتعرف الغضون ؟ »

وطالما صور بلزاك مأساة الشيخ العاشق . فلأنه لا يستطيع أن يتبين أن ترحيب النساء به ، وحفاوتهن بلقائه ، إنما هو بفضل هداياه وخدماته الدائمة المتجددة ، وليس لشخصه هو كالحال فيما مضى ، فإنه يتهالك ويتداعى من أجل أية فتاة لبقة حاذقة تعرف كيف تلوح له بقبس من أمل خلب أحمق . ومن أجل منة يستجديها ، فإنه يهوى ، مثل شخصية البارون هيلو إلى العار و إلى الحضيض . ولقد خلف لنا شاتوبريان ، الذي لم يعرف كثيراً هذه الآلام ، مخطوطاً

عجيبا : « الحب والشيخوخة » ، أنة حرى طويلة ، وصرخة ألم لشيخ عاشق لا يعرف الهرم .. « إن جزاء أولئك الذين أحبوا كثير النساء ، هو أن يحبوهن دائماً . أما جزاء النساء اللاتى أحببن كثيراً الرجال ، فهو أن يسمعن أحيانا أصغرهن سناً يتهامسن عند مرورهن بدهشة جدية : « يبدو أنها كانت جميلة ... »

والقلب ذاته يهرم عند الكثيرين . فهو يجف فى الكبر جفافاً عجيباً . لعله تعوزه الرغبة الطبيعية لتمد الشهوات بمدد طبيعى قوى ؟ ولعل كذلك الشعور بقصر الحياة يميت فيه الرغبة والميل ؟ وإن أنانية بعض الشيوخ لتبعث دائماً على الحيرة . لقد قضى « أفيل » Aphile كل حياته مع « يونيس » Eunice فأصبح عشيقها عندما كانت فى السابعة عشرة . ودفعها إلى هجر زوجها ، وهو إن كان لم يتزوجها ، فلأنه كان هو نفسه متزوجاً . وقد ضحت من أجله بأسرتها ، وأطماعها ، وكرامتها ، وأصدقائها . ووجهت إهتمامها وعنايتها إلى ملذاته ، وإلى عمله وحياته . وخلفت علاقتهما الغرامية صداقة طويلة . وكان فى الثمانين من عمره ، وكانت فى السبعين من عمرها ، وما زالا يتزاوران ويرى أحدهما الآخر كل يوم . وأخيراً قضت نحبها . فأشفق كل من عرفوهما على أفيل ورثوا له . « سيلحق بها ويموت » هكذا قالوا . ولكن لاشىء من هذا بالمرة ! فقد رؤى وكأن شبابه وصباه قد عادا إليه فجأة . إنه لم يكن أكبر من أن يحب فحسب ، بل كان كذلك أكبر من أن يأسى ويألم .

وأنانية الشيخوخة هذه ، تباعد بينها وبين كثير من الصداقات . فلا يجد فيها من هم أكثر شباباً تلك الحرارة التى تستميلهم وتستهويهم . والبخل عيب فى الشيوخ . وهو يرد أحيانا إلى خوف العوز وخشية الحاجة . فالشيخ الهرم

يعرف أنه سيعييه كسب معاشه ، وأن العمل الشاق سيصعب عليه ويضنيه . ولذا فهو يتعلق بما لديه ويتشبث بما يملك . ويحتاط لكل ما قد يطرأ من أحداث : فلديه مخابئه الخفية الكثيرة واحتياطاته المتينة الدقيقة . ولكن البخل ليس وليد الخوف فقط . فلكل إنسان حاجة إلى شهوة من الشهوات ، وشهوة البخل تلك هينة على كل سن . ويبدو أنها تهب صاحبها لذات قوية : عند عده ماله ، ولمسه ذهبه ، وفى تتبع حركة الأسعار والأثمان ، وسوق الأحجار الكريمة ، والإحتفاظ ببعض القوة على الرغم من وهن الجسم . وإن البخل ، كما يتفكهون ، ليجلب لأتباعه وأشياعه نشوة مذهلة وفتنة ساحرة حين يستبعدون سببا إثر سبب من كل أسباب الإنفاق .

وكتب «لابرير» ( La Bruyère ) يقول : « ليس الخوف من الإملاق يوما ، هو ما يجعل الشيوخ بخلاء شحيحين . فمنهم من لديهم موارد عظيمة لا يمكن معها أن يحملوا لهذا الأمر هما . ثم كيف يمكن ، من ناحية أخرى ، أن يخشوا الحرمان من نعيم الحياة ، بينما هم يحرمون أنفسهم منه باختيارهم ليشبعوا شهوة شحهم ؟ . . . فهذه الرذيلة هى أثر من آثار السن ونتيجة لخلق الشيوخ الذين يستسلمون له بطبيعتهم بقدر ما كانوا يتبعون لذاتهم فى شبابهم ، أو طموحهم فى رجولتهم . . . فليست القوة ، ولا الشباب ، ولا الصحة بلازمة ليكون المرء بخيلا : إنما يلزمه فقط أن يودع أمواله الخزائن ، وأن يحرم نفسه من كل شىء . وهذا سهل على الشيوخ الذين لابد لهم من شهوة يرضونها لأنهم بشر . . . »

وأخيراً فإن عيوب العقل ، مثلها كمثل عيوب الوجه ، تزداد عادة وتكثر

فى الـكبر . فإذا أصبح الشيخ عاجزاً عن هضم الأفكار الحديثة وتمثيلها لأنه لاقدرة له على مضغها ، فإنه يتمسك بأحكامه السابقة فى سن النضوج بعناد المتشاكسين . واستناداً منه إلى الخبرة والتجربة ، فإنه على ثقة ، كما يعتقد ، من قدرته على حل المشاكل وتذليل الصعاب . أما المعارضة فى الرأى فتثير ثائرته وتسخطه : إنه يعدها قلة إحترام . وهو كالطفل فى تعنته وغضبه . فيصيح بك : «فى زماننا ، لم يكن ليسمح لنا بمعارضة من هو أكبر منا سناً ». وينسى أنه فى زمنه قد وجهت هذه العبارة إليه هو من جده . ولعجزه عن أن يتتبع باهتمام وشوق ما يحدث تحت بصره ، وبالتالى لعجزه عن أن يتجدد ، فإنه يعكف على سرد نفس النوادر إلى غير نهاية . إنها كانت تسعد شبابه وتبهجه؛ وهى الآن بعد روايتها مراراً وتكراراً ، تسمم وتنغص على شباب أجيال من بعده . ولو استمع إليه نفر من الشبان لتثاءبوا سأماً أو تبادلوا البسمات فيما بينهم ؛ ثم سرعان ماتراهم يتولون عنه وينأون . ومن هنا تأتيه الوحدة التى هى أكبر شرور الـكبر . لقد فقد كل خلانه فى الحياة وأصحابه واحداً إثر واحد ، ولم يعد بعد قادرا على أن يبدلهم بغيرهم . وشيئاً فشيئاً تمتـــد الصحراء القفرة المجدبة حول الشيخ الهرم . إنه سيصبح فيها يرمق الموت إذا لم يكن يرهبه رهبة تشتد كلما بدا له قريباً منه كل القرب ، مهدداً له كل التهديد .

وفى نهاية كتاب «الحرب والسلم» ، يصور «تولستوى» المصور المدقق فى هذا الأمر شأنه فى كل أمر ، صورة مؤثرة لامرأة عجوز ساءت شيخوختها أشد السوء :

فمنذ فجعها الموت فى زوجها وثكل ولدها من قبله ، وهى تعيش دون غاية

ولاحس ، منسية فى هذه الدنيا من الحظ . إنها تأكل ، وتشرب ، وتنام وتتيقظ ، ولكنها لاتحيي . فالحياة لاتترك عندها أى أثر وهى لاتتطلب شيئاً من الحياة ، سوى السكينة ، وهى لاتستطيع أن تجد هذه السكينة إلا فى الموت . ولكن إلى أن يجيئها الموت ، يجب عليها أن تعيش ، أى أن تنفق من قواها الحيوية . وإنا لنلحظ فيها إلى حد كبير ، مانلحظه فى الأطفال حديثى السن أو فى الشيوخ البالغين أرذل العمر ؛ فلا نرى فى حياتها أى غرض خارجى تستهدفه ؛ إنما حسبنا أن نتبين مقدرتها على مزاولة وظائفها المختلفة . إنها فى حاجة إلى الأكل ، والنوم ، والتفكير ، والبكاء ، والتحدث ، والعمل ، والغضب إلى غير ذلك ، فقط لأن لها معدة ، ومخاً ، وعضلات ، وأعصاباً ، وكبداً .

« إنها تفعل كل هذا دون أن يثيره فيها شىء خارجى ، ولا يحدث مثل هذا عند البشر فى تمام حياتهم عندما لانتبين ، خلال الغاية التى يرمقونها ، غايات أخرى يصرفون فيها قواهم . إنها إنما تتكلم لأنها تحتاج ، من الناحية الطبيعية ، إلى تحريك رئتيها ولسانها . وهى كالطفل ، إنما يبكى لأنه يجب أن يتمخط .

« وعند الصباح ، وعلى الأخص حين تكون قد أكلت فى ليلتها السابقة غذاء ثقيلا دسما ، فإنها تكون فى حاجة إلى الغضب ، فتروح تتمحل العلة وتلتمس السبب فى صمم مدام بيلوفا . . . وعلة أخرى كانت تعثر عليها فى السعوط الذى كانت تجده تارة جافا وتارة نديا ساء فركه . وبعد هذه المخاصمة والمراوغة ، تنتشر عصارة الصفراء فى محياها ، وتعلم وصيفاتها بعلامات مؤكدة متى سيعترى الصمم مدام بيلوفا من جديد ، ويصبح السعوط طريا

والوجه مصفراً . وبمثل حاجتها إلى تحريك دورة الصفراء فيها ، فإنها كانت تشعر كذلك أحياناً بحاجتها إلى استخدام ما بقى لها من قدرة على التفكير ، وكانت تنتظر الفرصة لذلك فى صبر وأناة . أما إذا كانت فى حاجة إلى البكاء ، فلتتحدث إذن عن الكونت الراحل .

« وحين يعوزها الهم والكآبة . فالعلة المزعومة هى نيقولا وصحته ؛ وعندما يلزمها تحقير إنسان وإذلاله ، فهاهى ذى الكونتيس مارى ؛ وحين ينبغى عليها أن تجلو صوتها (وكان هذا يحدث عادة نحو الساعة السابعة مساء بعد الأكل ) ، فهى نفس القصة تروى على نفس السامعين .

« وكان معاشرو العجوز وخدمها يدركون حالتها ، ولو أن أحداً منهم لم يكن ليتحدث عنها أبداً ، وكان الجميع يجاهدون ما وسعهم الجهد فى إرضاء رغباتها . ولم تكن إلا نظرات نادرة ، نصف باسمة ونصف حزينة ، تتبادل بين نيقولا وبيير وناتاشا والكونتيس مارى ، تعبر عن الإدراك المشترك لحالتها .

« ولكن هذه النظرة كانت تقول شيئاً آخر غير ذلك : إنها تعنى أنها قد أتمت عملها فى هذا العالم ، وإنها ليست بدقة فيما نراه فيها ، وأننا سنصير جميعاً مثلها . وأنه مما يسرنا أن نطيع ، وأن نحتمل من أجل هذا الشخص الذى كان من قبل عزيزاً حبيباً ، وكان فيما سبق يفيض بالحياة فصار الآن بائساً مسكينا .

« ومن بين أفراد المنزل ، نرى أردأهم وأغباهم والأطفال الصغار هم فقط الذين لا يدركون ، فيتباعدون عنها » .

ولنوجز القول فى أخطار الشيخوخة : فهى توهننا ، وتحرمنا اللذات

الواحدة بعد الأخرى؛ وإنها لتجفف القلب فى نفس الوقت الذى تجفف فيه الجسم؛ وإنها لتقصينا عن المخاطرة وتبعد عنا الصداقة والمحبة؛ وإنها أخيرا لتعكرها وتخيم عليها فكرة الموت. إنها صورة قاتمة حالكة.

## ٤ — أيمكن أن لا نهرم؟

إن فن الشيخوخة هو الفن الذى يكافح هذه المساوىء والشرور، ويجعل، برغمها، من خاتمة حياتنا، وقتاً سعيدا هنيا.

مكافحة أضرارها وشرورها . . . أيمكن هذا عندما تهاجم هذه الأضرار الجسم؟ أليس الكبر عملية فسيولوجية طبيعية يجب الرضا بتطورها الذى لايمكن تنكبه؟ لقد قارنا الشيخوخة بأوراق الشجر فى الخريف. أفلا يمكننا أن نكتب خرافة الشجرة التى تود الإحتفاظ بأوراقها؟ إنها تحاول عبثا ربطها وإلصاقها بها. فعواصف الشتاء العاتية ستجعل منها، فى ساعة معلومة، هيكلا أسود خاوياً كجاراتها.

ومع ذلك فقد رسمت الحضارة والتجربة للإنسان سبلا، إن لم تكن لمكافحة الكبر ذاته، فعلى الأقل لمكافحة مظاهره. وهذا إلى حد كبير هو الدور الذى تلعبه الزينة والحلى. فتهتم عجائز النساء عادة بثيابهن وحليهن أكثر مما تهتم بها الشابات منهن. وهذا أمر طبيعى تماما. فللحلى البراقة أثرها فى اجتذاب النظر وتحويله عن النقائص والعيوب. فالحبات الصدفية، كالأقمار الرقراقة، لعقد جميل من اللؤلؤ تنسينا ما بالجيد الذى يحمله من غضون، وبريق الخواتيم والأساورة يخفى ماعرا الأيادى والمعاصم من تجاعيد الكبر،

كما أن التيجان على الرأس والقرطة فى الأذن ، كالوشام عند القبائل البدائية، لتمنع المتحدث ، بخطفها بصره ، عن أن يعد غضون الجبين .

وكل ما يعمل على إزالة الفروق والتمييز بين الشيخوخة والشباب هو من عمل الحضارة . وإن أكثر العصور أدباً وكياسة فى التاريخ ، قد إبتدع الشعر المستعار ، الذى هو تحية كريمة قدمها ذوو الشعور إلى ذوى الصلع . وكان من أثر « البودرة » و « الروج » أن أصبحت الفتيات شبيهات بجداتهن ، والسقيمات بالسليمات منهن . وكل سياسة محال الأزياء ومعاهد التجميل إنما تقوم على إبتداع زى يمكن أن يحفظ لعجائز النساء بعض الأمل والرجاء . وفن إرتداء الثياب عند النساء الطاعنات فى السن ، هو فن إخفاء عيوبهن وما عفا من محاسنهن ، وهذا أيضا نوع من الكياسة وحسن السياسة . والنقاب الرقيق الذى تختمر به المرأة هو إبتكار بديع لحجب صورة الوجه ولتحويل النساء جميعا إلى جمال غير حقيقى . وما الحلى كلها إلا نقب رقاق ، فجميعها تحجب بقدر الإمكان ما عبثت به يد الزمان .

أيمكن للعلم يوماً أن يحول دون الشيخوخة والنيل من أجسامنا وتحطيمها ؟ أيمكن أن يفجر لنا ينبوعا من الشباب الحقيقى ؟ يقولون عادة إن عمر الإنسان ليس بحسب شهادة ميلاده ، وإنما بحسب شرايينه وأوصاله . فرجل فى الخمسين قد يكون أكثر « كبراً » من رجل فى السبعين . فينبغى إذن أن يكون من الممكن تجديد الشباب فى الجسم بإعادة خلاياه إلى حالة فسيولوجية أكثر حيوية وشبابا . وهذا ما فعله علماء البيولوجيا فى المخلوقات الدنيا . فإن أنت

أخذت كائناً عضويا بسيطا ، مثل بعض أنواع حيوان « المعطفات »[١] التى تعيش فى الأطلنطى ، ووضعت واحداً من هذه الكائنات فى كمية قليلة من ماء البحر ، وتركته يتغذى على إفرازاته الخاصة ، فإنه سرعان مايعتريه الضعف والوهن . أما إن أنت جددت ماءه كل يوم فستنقطع عملية الشيوخة . فمن المحتمل أن مايصيب خلايانا من ضعف وكبر إنما يرجع إلى تراكم الإفرازات والعصارات ، فنصل بتنظيفها وغسلها فى فترات مناسبة إلى أن نزيد من بقائنا ، ونطيل أمد وجودنا .

ولقد حاول الإنسان أن يعيد الشباب إلى الحيوانات والناس بالتطعيم ببعض الأعضاء وبالحقن ببعض « الهرمونات » . فالجرذان المسنة التى تعالج بهذه الوسائل تستعيد نشاطها وبهاءها وحيويتها وحباتها . ويبقى أثر هذا العلاج حوالى الشهر ، ويمكن إعادة هذه العملية أربع مرات . وهكذا تطول حياة الجرذ نصف عمره وتبدو أبهى وأسعد . ولكن ، فى كل مرة ، تكون نتائج العلاج أقصر والشيخوخة أسرع . . وإننا لنعرف تجارب الدكتور « فورونوف » على الكباش . أما نتائجها فى الإنسان فأقل يقيناووثوقا . ولكن يظهر أن هذا لا يهم كثيرا . فالإنسان فى هذه الأيام يستطيع بسهولة باتباعه قواعد الصحة السليمة أن يبلغ سن الثمانين ، بل وأكثر من الثمانين . فهل لنا أن نأمل فى الزيادة ؟ .

وفى سن الثمانين ، نجد : الحب ، نهاية الحب ، والطموح ، وغرور الطموح ،

(١) Tuniciers : أنواع من الحيوانات المائية ذات فراء أو « معاطف » زاهية ألوانها . وهى من الحيوانات قبل الفقرية ، هى كالجدود البعيدة للفقريات .

وحماقتين أو ثلاثا والبرء منها . ولا يعد الرعب من الموت شديدا قويا . ويتجه الحب والميل عندهم إلى أناس زالوا من الوجود ونحو حوادث مضت وانقضت . «أما وقد بقيت وحيدا ، فقد أصبحت أثراً لأسطورة قديمة » ، كما كان يقول جيته .

وفى دور السينما ، عندما يكون العرض متصلا ، يكون من حق المتفرج ، نظرياً ، البقاء ورؤية القصة من الصباح إلى المساء ولكن الحقيقة أن الملل يقصيه عن مقعده منذ أن يرى ثانية صورا رآها من قبل . والحياة عرض متصل . وتتكرر فيها نفس ، الحوادث ، كل ثلاثين عاما فنملها ونضيق بها . وهكذا يقف المتفرجون فيها ، الواحد بعد الآخر ، للخروج منها .

وعندما إحتفل الكتاب الإنجليز بعيد ميلاد «ويلز» السبعين . حدثهم هذا حديثا قال فيه إن هذا الحفل يذكره بإحساس أحسه حين كان طفلا صغيرا ، عندما كانت مربيته تقول له : « قد حان وقت ذهابك إلى الفراش ، ياسيد هنرى . » وقد يعترض الطفل ويحتج حين تحين ساعة الرقاد ، ولكنه يحس فى أعماقه أن النوم يغلبه وأنه سيجد فى الفراش راحة يرجوها . وأضاف ويلز : « فالموت مربية حنون صارمة ؛ فما أن يحين الوقت ، حتى تجيء قائلة لنا : « ياسيد هنرى ، لقد حان وقت ذهابك إلى الفراش . » وقد نعارض ونقاوم قليلا ؛ ومع ذلك فإننا نعلم جيدا أن ساعة الراحة قد حانت ، وأننا نصبو ، من قلبنا ، إلى هذه الراحة .

## ٥ — أيستطيع الانسان قضاء شيخوخة طيبة ؟

ولكننا إذا قبلنا ، دون أسى شديد ، فكرة أن الحياة محدودة ، فهل لنا

أن نرجو الوصول إلى نهاية المرحلة بأجسام وعقول سليمة ؟ أيمكن هذا ؟ إنه ممكن تماما .

فليس صحيحا أن الشيخوخة تكون مصحوبة ، بالضرورة ، بتلك الطائفة من العلل والأدواء التى وصفناها . ولنلحظ فى ذلك الحيوانات . فالكثير منها يقضى حياته إلى أن يدركه الموت من غير تغيير كبير . والجسم المدرب تدريبا رياضيا حسنا يمكنه الإحتفاظ زمنا طويلا بفتوته ورشاقته . والمهم فى الأمر هو أن لا تتخلى عن ذلك وتتركه أبدا . فما فعله الإنسان بالأمس ، يستطيع فعله اليوم ، وما ينقطع عنه فقد ضاع الى الأبد . وممارسة الرياضة والمثابرة عليها يأتيان بالعجب ! فكثير ممن بلغوا السبعين عاما يزاولون كل يوم لعب السيف . أو التنس ، أو السباحة ، أو الملاكمة . والحكمة هى تدريب الجسم إلى النهاية دون ما تقلب أو إنقطاع . وليس من الممكن وقف شيخوخة بدأت ، أما أن نمنع أجسامنا من أن تهرم فأمر يسير بعض اليسر ومرجو كل الرجاء . ويقول مونتانى : « إنه لمن البساطة أن نطيل ونتعجل المتاعب الإنسانية . وإننى لأود كثيرا أن أكون شيخا زمنا طويلا ، عن أن أكون شيخا قبل أن أكون كذلك فى الواقع » .

وإذن فعلينا أن لا نتخلى أبدا عن أجسامنا قبل الأوان ؛ وأن لا نتخلى أبدا عن عواطفنا . فالقلب ، كالجسد ، فى حاجة إلى الرياضة والمران . ولن تكون المسألة بالطبع مسألة خلق عواطف ومشاعر . ولكن لم نكبت ، لغير ما سبب سوى السن ، تلك العواطف والمشاعر التى يستشعرها الإنسان حقيقة ؟ ألأن العجائز العاشقين يكونون سخفاء مضحكين ؟ ولكنهم لا يكونون سخفاء مضحكين إلا إذا نسوا أنهم عجائز . ليس من سخف أبدا

فى زوجين شيخين مخلصين فى غرامهما . فكل منهما يظل يرى فى الآخر ما حببه فيه وقت الشباب . فالإهتمام ، والحنان ، والعطف ، والإعجاب أمور لا تعرف السن . وأكثر من ذلك : يحدث عادة ، وقد ولى زمن العواصف والفورات ، أن الغرام الذى لم يكن كاملا يأخذ ، فى الكبر ، طعما لاذعا لذيذا . ويزول عدم التفاهم الحسى بزوال الحس ؛ وتموت الغيرة بموت الشباب ؛ وتخمد جذوة العنف بخمود القوة . فمن بقايا شبابين عاصفين ثائرين يمكن عمل شيخوختين لطيفتين هادئتين . فحياة الزوجين تذكرنا بتلك الأنهار ، المتدفقة الخطرة الجارفة بالقرب من منبعها ، التى تصبح ، وقد اقتربت من مصبها ، أنهارا جميلة بطيئة صافية ، تنعكس على صفحتها الواسعة أشجار الحور ونجوم الليل .

وغرام الشيوخ يمكن أن يكون أيضا مؤثرا وصادقا كغرام الشبان . إن له صفاء الصداقة ، ولكن له هموم الحب الشديدة المحرقة . ويروى لنا فيكتور هيجو كم كان يحز فى قلبه أن يرى مدام ريكاميه العمياء بجوار شاتوبريان المشلول ، « فى كل يوم ، فى الساعة الثالثة ، يحملون مسيو شاتوبريان إلى القرب من فراش مدام ريكاميه . لقد كان هذا مؤثرا يهز النفوس . فالمرأة التى لم تعد تبصر تتحسس الرجل الذى لم يعد يحس أو يشعر ، حتى تتقابل يداهما . تبارك الله تعالى ! إن الإنسان ليكاد يغادر الحياة ؛ وهو لا يبرح يحب » . إن الوفاء ليتحدى الشيخوخة . فكان دزرائيلى يجر نفسه جرا كل مساء إلى المجتمعات ليرى « ليدى برادفورد » ؛ وكان يضع رجال الدولة فى خدمة عشيقته . « إنهم يستطيعون البقاء فى بيتك طول النهار يلبون رغبتك ويخضعون لمشيئتك » . ولا شك فى أن ليدى برادفورد جعلته يألم قليلا ؛

ولكنها كانت، لرجل عاطفى لا يطيق الحياة بغير خيال ، الباعثة لأحلامه الأخيرة . وإنه لدور المرأة أن تثير ، بدلالها ، أوهام الشيوخ ، وأن تقودهم بلطف ولين إلى الموت بين آلام الشباب وهمومه الساذجة . وكم من مرة رأينا حياة عاطفية قد بدت للجميع وكأنها خبت إلى الأبد ، تشتعل فجأة وتتوهج ، كالنار فى الحطب يظنها الإنسان قد طفئت فتعود تستعر بغتة !

ولكن الحياة العاطفية لا تقوم فقط على عاطفة الحب بل أكثر من ذلك . فالميل الذى يحسه الشيخ نحو الأطفال الصغار يكفى عادة لأن يملأ عليه حياته . إن هناك شيئا لذيذا فى إن يرى أبناءه وبناته يقطعون بدورهم طريق الحياة . فنحن نبتهج لسعادتهم ، ونتألم لآلامهم . ونحب حبهم ، ونشاركهم فى صراعهم كيف نشعر أننا خارج مسرح الحياة بينما هم هناك يقومون بأدوارهم بدلا عنا ؟ كيف نظن أننا محرومون من اللذات بينما هم يتذوقونها ؟ إنها لمتعة عظيمة فى أن نذهب إلى الملعب لأول مرة ، ولكن أليس أبهج منها أن نذهب بأطفالنا اليه للمرة الأولى ؟ وإنها لسعادة قصوى فى أن نكشف بأنفسنا عن الشعراء الذين نحبهم ، ولكن أليس أسعد منها أن نرقب على وجوه أطفالنا الإعجاب واللذة التى تمنحهم إياها مطالعة الكتب التى اخترناها لهم ؟ وحين يضن علينا الزمان بلذات عظيمة ، لأن السن تحرمنا إياها ، أيمكن أن ندرك متعة أشد وأقوى من أن نرى بريق اللذة يشع من عيون أطفالنا ؟ .

وهناك صلة أشد وأوثق من صلات الأبوة تربط الجدود بأحفادهم . فلتعطل الشيخ عما يشغله ، فإنه يعود ثانية إلى خلو الطفولة وفراغها من التزام

على استعداد للعب ورواية القصص والإستماع إلى الأخبار والأسرار . وهو إن لم يعد قادرا على مجاراة أولاده فى الجرى ، فإنه مازال قادراً على الترنح فى المشى مع أحفاده . فالخطوات الأولى والأخيرة لها نفس الوقع والخطو . والمشيات الأولى والأخيرة تحدها نفس الدائرة والحدود.

وليس من الضرورى حقاً أن يعيش الشيخ فى وحدة وعزلة . إنما يصبح كذلك لو أظهر أنانية أو بخلا أو سيطرة أو خرفاً . أما لو أنه تنبه فى نفسه إلى النقائص التى تلازم الشيخوخة ، فدفعها وحاربها وخنقها فى مهدها ، ولو أنه ألزم نفسه أن يبقى كريماً ، رضياً ، متواضعاً ، ودوداً ، فإنه على العكس سيرى الشبان يتهافتون على محبته وكسب صداقته ، ويركنون إلى تجاريبه وخبرته . والعسير فى الأمر ، عند الشيخ ، هو الكشف عن هذه الخبرة وتلك التجاريب (التى إن لم تهد فهى على الأقل لن تضل ) دون أن يثلم أو يخدش من حمية الشباب الطبيعية وحماسته . ولكن الخبرة قبل كل شىء لا تبين أن كل حماسة سخف وحمق . إنها تعلمنا فقط إنتظار النتائج العظيمة ، لا من الأحاديث والألفاظ العظيمة ، ولكن من الأفعال والفضائل العظيمة . فهذا هو التعلم والتهذيب الذى يرضاه الشباب من الرجال الجديرين به . وكان من الجميل أن ترى ليبرتى وهو فى الثمانين ، وقد التف حوله أتباعه الأوفياء من الشبان ، جاءوا يلتمسون عند الشيخ الرئيس عقلا يرتجونه ويؤمنون به . وزيارة إلى ميريديث ، أو مالارميه ، أو برجسون تكسب الزوار وتزودهم بأفكار بارعة رشيدة وآراء كريمة سديدة . فالشيخ الذى لا يبعث على الضيق والملل لن يعدم الصديق أو الأنيس .

فى كل عام ، حوالى منتصف شهر ديسمبر ، أتخذ وجهتى ، على طريق

« لاتوربى » المرتفع ، صوب منزل صغير ، يشبه منازل الفلاحين الرومان ، يسكنه « مسيو جبريل هانوتو »[١] . وعلى حافة الطريق العميق تقوم شجرة زيتون عجوز معمرة . ومن تحت أشجار البرتقال يصعد صاحب البستان ، على الرغم من أعوامه الخمسة والثمانين ، فى المنحدر الصلد لحديقته ، كأخف وأسرع ما يكون الشباب . وفى صوت عذب يقول : « إنى أتكلم الفرنسية كما كانوا يتكلمونها فى عهد لويس الخامس عشر . لقد علمتنى إياها جدتى ، فقد كانت لغتها » .

وتفكير مسيو هانوتو كلهجته ، قديم وحديث فى وقت واحد . فهو يقول : « سأدلك على بعض تعاليم وقواعد لترددها كلما احتجت إلى ما يشد دعزمك . إنها سهلة يسيرة ولها أثرها الفعال . وهاك هى : « كل شىء يحدث . . . . كل شىء ينسى . . . . كل شىء ينصلح . . . . لن يدرك الإنسان شيئاً من لاشىء . . . إذا علم كل إنسان بما يقوله كل إنسان عن كل إنسان ، لما تكلم إنسان مع إنسان . . . . » وهذه القاعدة الأخيرة ، التى تفتننى ، أجد فيها العزاء على الشائعات والأقاويل . . ويضيف : « وعلى الأخص ، لاتدع الخوف يتطرق إلى قلبك أبداً . فالعدو الذى يجعلك تتراجع أمامه إنما يخافك ويخشاك فى نفس الوقت . » فها هو ذا شيخ أريب علمته دراسة التاريخ وخبرة الحياة الطويلة ، ليس اليأس والجمود ، وإنما صفاء العقل والثقة بالنفس . فى الخامسة والثمانين ، ينهض بآلاف المشروعات ، ويقوم بالرحلات الطويلة ، ويبنى ، ويزرع . . .

---

(١) Gabriel Hanotaux : سياسى ومؤرخ فرنسى ، وعضو الأكاديمى فرانسيز . ولد فى بورفوار سنه ١٨٥٣ . وهو مؤلف « تاريخ الكاردينال ريشليو » و « تاريخ الشعب الفرنسى » .

وبمثل هذه الروح قال لى المارشال ليوتى ، بعد انتهاء معرض المستعمرات : « ماذا سأفعل الآن ؟ » فحين أجبته : « سيدى المارشال ، ستجد الحكومة ولاشك سبيلا لإستخدامك . . . — صاح بى : ستجد ! . . ستجد ! ياصديقى ، هذا بديع جداً ، ولكنى ، أنا ، قد ناهزت الثمانين ، فإذا أردت أن أسلك سبيلى فى الحياة ، فينبغى علىّ أن أبدأ ! »

وهذا مايجب أن يكون . لقد قلنا : « إن الشيخوخة هى الشعور بأن الوقت قد تأخر بنا كثيراً ، وأن دورنا فى الحياة قد لعبناه ، وأن التمثيلية بعد الآن إنما تمت إلى جيل آخر . وليس شر الكبر الحقيقى هو وهن الجسم ، بل هو بلادة النفس وجمودها . » ولكن يمكننا مكافحة هذه البلادة وينبغى علينا مكافحتها . إن أقل الناس شيوخة هم أولئك الذين يحتفظون بأسباب الحياة . وقد يظن أن حياة مفعمة بالإنفعالات الشديدة ، والمناضلات ، والدراسات ، والأبحاث تبهظ الإنسان وتثقل كاهله . ولكن فى الواقع يبدو أن العكس هو الأحق . فكليمنصو وجلادستون ، كلاهما كان رئيساً للوزراء وقد نيف على الثمانين عاماً ، وكلاهما كان مدهشاً فى قوة شكيمته وشدة مراسه . فما الشيخوخة إلا عادة قبيحة ، وليس لدى الرجل العامل من الوقت ما يكفى للتعود عليها .

ولكن كيف يظل الإنسان مشغولا ؟ ألا تفلت الأعمال من الشيوخ وتفوتهم ؟ ثم أمن صالح البلد أو الأعمال أن نضع على رأسها شيخاً ؟ الجواب على ذلك أنه فى حالات كثيرة يحكم الشيوخ ويرأسون أفضل من الشبان . فهذا كان حال « فابيوس » العجوز الذى أنقذ روما . وكانت الخطة الأولى فى حرب سنة ١٩١٤ هى وضع رؤساء مسنين ، فى كلا المعسكرين . « ولم يتمن

أجاممنون أن يكون لديه عشرة رفقاء ، مثل أجاكس ، ولكن مثل نستور ، ولم يشك فى أنه لو كان لديه هؤلاء العشرة لما سقطت تروادة . » فالسياسى الشيخ والطبيب الشيخ يكونان مفعمين خبرة وحكمة . فهما ، وقد تخلصا من شهوات الشباب ، يكونان أكثر صواباً وأشد صفاء فى حكمهما على الأشياء وتقديرهما للآراء . ويقول « سيسرون » : « ليس بقوة البنيان وخفة الأجسام تتم الأعمال العظيمة ، وإنما بسداد الرأى ، وقوة السلطان والنضج الحكيم التى تتوافر بكثرة فى الشيخوخة الرشيدة . »

## ٦ ـ وسيلتان مختلفتان لشيخوخة طيبة

هناك ، على الجملة ، وسيلتان لقضاء شيخوخة طيبة الوسيلة الأولى ، هى أن لا تشيخ . وقد ذكرنا ذلك : فتلك هى سبيل أولئك الذين أفلتوا من الشيخوخة بالعمل . وهذا هو معنى أسطورة فاوست ، كما أتمها جيته فى نهاية قصيدته . فعبثاً حاول فاوست الشيخ العثور على مظهر الشباب . لقد خذله الحب ، واللذة ، والطموح ، ولكن العمل فى النهاية أنقذه . فتعهد فاوست ، وقد كف بصره وأشرف على الموت ، بالقيام بنزح مستنقع موبوء ، وأن يسكن فيه قوماً وماشيتهم . « نعم ، لقد وهبت حياتى كلية لهذه الفكرة . إنه وحده الجدير بالحرية كما هو جدير بالحياة ذلك الذى يعرف كيف ينتصر عليهما كل يوم . . . ليتنى قادر على مزاولة عمل حر ، فى أرض حرة ، وفى كنف شعب حر ! إذن لقلت لتلك الآونة : قفى ، أنت ! إنك لجميلة طيبة ! . . . إنى فى هذا الإحساس الداخلى بتلك السعادة السامية لأتذوق الآن اللذة المفرطة

الساعة . » وفى هذه اللحظة يهوى فاوست ميتا . وينتهى كل شىء ، ويتهيأ « مفيستو » لسحب هذا الروح الذى اتباعه إلى جحيمه . ولكن تنزل الملائكة وتحمل إلى السماء الجزء الخالد من فاوست ، ذلك الجزء الذى لم ييأس أبداً من العمل ، والذى كتب له النجاء بسبب هذا الأمل .

والوسيلة الثانية ليكون الإنسان سعيداً فى كبره هى الرضا بالشيخوخة . فيمكن أن تكون الشيخوخة هى سن الصفاء ، والعفة والزهد ، وبالتالى سن السعادة والنعيم . فقد انقضى زمن الصراع والكفاح ، ودورنا فى الحياة قد أديناه ، وملاذ الموت منا قريب ، ولم يعد للشقاء مأرب فينا . وعندما سئل الشيخ « سوفوكلس » عما إذا كان لا يزال يتذوق لذات الحب ، أجاب : « فلتحفظنى الآلهة ! لقد تحررت منها كما أتحرر من سيد ثائر وحشى الطباع . » وقابلت بعض الشيوخ المبجلين ، الذين يشبهون الحكماء كما نتصورهم فى خيالنا . وهم ، وقد تخلصوا ، لا من ثورات الحب فحسب ، وإنما من مسئوليات المستقبل الطويل ، لا يغبطون الشبان ، بل يشفقون عليهم من بحر الوجود الزاخر المائج الذى مازال عليهم أن يعبروه . وهم ، وقد حرموا بعض اللذات التى لا يأسفون عليها ، يتذوقون بنهم مابقى لهم من لذات أخر . إنهم يعلمون أن النصح لا يجدى وأنه ينبغى على كل امرىء أن يحى حياته الخاصة . وإنا لنصغى بسرور إلى ذكرياتهم لأنها تكفينا لومهم . بل إننا فى بعض الأحيان ، عندما تتعقد الأمور وتزداد عسراً ، نسألهم أن يتسلموا القيادة . وهى بقدرما تسعى إليهم راضية مختارة ، يعلم الجميع أنهم عنها راغبون .

وهناك أكثر من وسيلتين لشيخوخة قبيحة رديئة . وشر هذه الوسائل هى

أن تتعلق بما يفلت منك أو يفوتك . وإنا لنلاحظ جميعاً أولئك الشيوخ الكبار من رجال الأعمال الذين يأبون أن يبسطوا أيديهم ، ويكبلون بأغلال نوع من الإسترقاق المقيت أبناء كانوا سيحبونهم لو أنهم كانوا من الحكمة أن أشركوهم فى أمورهم وجاههم . وإنا لنعلم عن أولئك الآباء البخلاء الذين يتركون أولادهم يعيشون فى فاقة ليستبقوا بين أيديهم المرتعشة رمز اللذة التى لم يعد فى استطاعتهم الحصول عليها ، ونعرف أولئك الشيوخ الجشعين الذين ، وبينهم وبين الموت أيام معدودات ، يسممون ساعاتهم الأخيرة فى الحياة بالغيرة والحسد ، والحسرة والأسى . ففن الشيخوخة هو الفن الذى يظهرها للأجيال التى تليها كعون تستعين به وليس كعائق ، وكصديق مخلص وليس كخصم منافس .

أما عن اعتزال العمل ، ففيه أقوال كثيرة . إنه يقتل بعض الرجال . هم اولئك لم يعرفوا كيف يهيؤون أنفسهم لهذا الوقت . أما من يحتفظ بروح الإطلاع سليما وحب المعرفة صحيحا ، فإن ذلك الوقت يكون لديه ألطف وألذ الأوقات فى حياته . فماذا يجب على الإنسان فعله ليجعل زمن اعتزاله سعيدا ؟ أن يكون قد قدر بطلان المجد والجاه ، ورغب فى هدوء الإعتكاف والإنزواء ؛ وأن يكون حريصا على الرغبة فى الفهم والتعلم ؛ وأن يحتفظ فى قريته ، وفى منزله ، وفى حديقته ببعض النشاط الشخصى المحدود . فالحكيم ؛ بعد أن يهب وقته للأعمال العامة ، لايهبه بعد ذلك إلا لنفسه ولثقافته الشخصية . ويكون ذلك سهلا عليه يسيرا ، لو أنه عرف كيف يعقد ، حتى فى وقت قيامه بأعباء وظيفته ، بعض الروابط بينه وبين الشعراء ، والجمال ، والطبيعة أما من ناحيتى أنا ، فإنى لاأتصور نهاية لحياتى أجمل من أن أعتزل الحياة يوما فى قرية بالريف ، لاتبعد كثيرا عن المدينة ، وهناك أعيد قراءة ، مع شرح ، بعض

الكتب التي أحببتها كثيراً . يقول مونتاني : « يجب أن يزدهر العقل في الشيخوخة كما يزدهر نبات الدبق على السنديانة الميتة » .

والأموات أصدقاء يعجز الموت عن أن يفرقهم عنا . والكتاب العظام صحاب خالدون ، قادرون على تجميل شيخوختنا كما انعشوا وأسعدوا شبابنا . والموسيقا كذلك صديق وفي كل الوفاء . فهي تقدم إلى أولئك الذين لايؤمنون بكمال العواطف البشرية ، ملاذاً من عوالم عجيبة تخلق كل يوم خلقاً جديداً . لقد شاهدت في الليلة السابقة ، في الأوبرا ، بعد عرض رفيع حقاً للسينفوني السابعة لبتهوفن ، وجوه من كانوا حولي . لقد أخذتهم جميعاً ، الشبان منهم والشيوخ ، نشوة الإعجاب والسعادة ، ففتنوا فتوناً . وكان هناك ولاشك بعض النفوس الفجة الضعيفة الخاملة ، ولكنها سحرت كغيرها سحراً حلالاً . فاستسلمت وقد طوتها أمواج النغم ، وداعبها رذاذ اللحن المتسق ، ودفأتها حرارة النبوغ ، إلى نعيم لايعرف السن ولا الأسى . ففهمت ، وقد تذوقت معها تلك السعادة السماوية ، أولئك السادة العظام الذين اختاروا قديماً أن يموتوا على أنغام الموسيقا التي كانوا يعشقونها .

يقول بسكال إن الحياة تكون سعيدة لو أنها بدأت بالحب وانتهت بالطموح . وهي أسعد كذلك لو أنها انتهت ، وقد أرضت كل طموح أو جاوزته ، بالراحة والطمأنينة . فبعد خط الظل في الخمسين ، بعشرة أو عشرين عاما ، نجد خط النور الذي يجتازه الإنسان . وقد كانت ضربات الشيخوخة الأولى تبدو له مؤلمة شديدة عليه . فآلمه أن يرى زمانا ، كان يظنه زمانه ، يتعلق بآراء جديدة وبرجال جدد . أما الآن فإنه يتذوق سعادة هادئة في أن يبقى متفرجا

نزيها لا غرض له فى عصر لم يعد عصره . وبحياه الهادىء ، وضوء نظرته الضاحك الصريح ، يفصحان عن حالة نفسه .. لا ، ليس حقا أن الشيخوخة جحيم يجب أن يكتب على بابه : « أنت يامن تدخل هنا ، أترك وراءك كل أمل ورجاء . » فلقد حللنا دواعى اليأس التى يظن أنها تعترى الشيخ ، وبينا أن لا داعى مها يعز على العلاج . أقلنا إن الشيخوخة محرومة من القوة ؟ ولكن هذه مسألة صحة أكثر منها مسألة عمر ؛ فهناك شيخوخة قوية متينة وشباب خائر ضعيف . أهى عاطلة من اللذات ؟ ولكن إن لها لذاتها العذبة المحبوبة بقدر علمها بأنها أسرع زوالا . أهى خالية من النشاط والحيوية ؟ ولكن الشيوخ فى الأغلب يعملون ويرأسون ويحكمون أفضل من الشبان . أهى محرومة من الأصدقاء ؟ إنها على العكس محوطة بهم لو أنها كانت أهلا لهم وتستحقهم . وأخيراً ، أتهاب الشيخوخة الموت ؟ ولكن هذا خوف يشفيه الإيمان والفلسفة خير الشفاء .

## ٧ — فن الموت

« لسنا ندرى ما إذا كان الموت حسناً ،
أما الحياة فعلى الأقل لن تكون حسنة أبداً .
سيقف الناس محزونين كما وقفنا ،
يرقبون نفس الحقول والسماء كما راقبنا ،
ونفس البحار . . . »

« سوينبرن »

هناك سبيلان للقاء الموت لقاء حسناً ، سبيل الأبيقورى الذى يعتقد أن الموت ليس شيئاً ، وسبيل المسيحى الذى يعتقد أنه كل شىء ؛ يقول أبيقور

« فلتعود نفسك على الإعتقاد بفكرة أن الموت ليس شيئاً بالنسبة إلينا ، فإن الخير والشر لا يكونان إلا في إدراكنا لها ، والموت هو فقدان كل إدراك . ففهمك أن الموت ليس شيئاً بالمرة ، يكون لك مصدر بهجة وسرور في الحياة الفانية . . . فليس ثمة شيء في هذه الحياة بزعج من يدرك حقيقة أنه لا يوجد شيء بعد الحياة . . . والموت لا وجود له ، إذ مادمنا موجودين ، فالموت غير موجود ، وعندما يوجد الموت ، فإننا لن نكون موجودين . » أما من ناحية الفيلسوف المسيحي ، فإنه لا يخاف الموت لأنه في نظره ليس سوى معبر يعلم بأنه سيجد وراءه أولئك الذين أحبهم ونعم بعشرتهم ، يحيون حياة لا نهائية أجمل كثيراً من الحياة الأرضية .

وليس يدهشنا كثيراً أن القديسين والأبطال يموتون موتاً كريماً . ولكن دون أن نذهب إلى هذا الحد من السمو ، نرى الصالحين من الناس يموتون موتاً نبيلاوهم يؤدون عملهم حتى النهاية . فلموت « ذوى المهن » عظمة وسمو . وإنا لنذكر بلزاك وبروس وقد حضرهما الموت فراودت خيالهما في سكرته الشخصيات التي كانوا إبتدعوها . فدعا أحدهما الطبيب « بيانشون » ، وحشرج الآخر باسم « فورشفيل » . . . ومات شارل الثاني ، ملك انجلترا ، كملك وسيد مهذب : « لقد أخذت وقتاً لا يمكن تصديقه لأموت ، أرجو عفوكم . » ومات ريشيليو وزيراً : « أتغفرون لأعدائكم ؟ ليس لدى أعداء آخرون غير أعداء الدولة » ؛ وكان « كورو » في موته رساماً فناناً : « أرجو من كل قلبي أن يستطيع الإنسان أن يرسم في السماء . » ؛ كما كان شوبان موسيقياً : « فلتعزف ياموزار في ذكراى . » أما نابليون فكان قائداً : « فرنسا . . .

الجيش . . . طليعة الجيش . » وكان كوفييه عالم تشريح : « إن الدماغ مشغول . » ؛ كما كان « لاسبيد » طبيعياً : « سألحق ببافون ( العالم الطبيعي الفرنسي ) ؛ أما مدام لويز فماتت ابنة ملك : « إلى الفردوس ! هيا ، هيا ، أسرعوا الخطى ! » .

وأحياناً تستحوذ المهنة على الإنسان إستحواذاً شديداً حتى أنها لتكاد أن تبقى من بعده . فحين دنا أجل الفيلسوف « هال » ، وكان طبيباً ، راح يجس نبضه بنفسه حتى آخر دقاته ، ثم قال لأحد زملائه : « ياصديقي ، لقد توقف شريان القلب عن الخفقان . » وكانت هذه آخر كلماته . وحين أدرك الموت العالم الرياضي « لاني » ، وكان قد نشر في أول القرن الثامن عشر طريقة « جديدة كل الجدة » وموجزة لإستخراج الجذر التربيعي والتكعيبي ، وبينما هو في غشية الموت وقد بدا فاقد الوعي عاجزاً عن أن يتعرف على أصدقائه ، مال أحد مساعديه ناحيته ، وسأله : « لاني ، ماهو تربيع العدد إثني عشر ؟ » فأجاب لاني : « مائة وأربعة وأربعون » . وأسلم الروح .

كتب مونتاني يقول : « لو كنت مصنف كتب لصنفت سجلا مشروحا للميتات المتباينة » . ولقد ألف كاتبان انجليزيان [1] الكتاب الذي تمناه مونتاني . وإننا لنشعر حين نتم مطالعة هـــذا الكتاب الطريف شعور الإحترام والإجلال للشجاعة البشرية . فليس سوى القليل من الخور في هذه الأخبار . « الموت هو النوم . ولا أكثر . . . ولكن أية أحلام تتخلل هجوع الموت هذ ؟ » وإذا كان سؤال هاملت المزعج مازال بغير جواب ، فليس من غير المجدي أن نعلم أن ملوكا وفنانين وأشقياء بائسين ، وكثيرا من الناس لم يضعفوا عن توجيه هذا السؤال .

(١) بيريل ولوكاس Birrell & Lucas

## ٨ — رسالة إلى الشباب

ها كم إبتسامة لمن يحبنى ،
وآهـــة لمن يبغضنى ؛
وتحت أى سماء تظللنى ،
فما هو قلب لكل قضاء . .

« بايرون »

أنكم تستهلون حياتكم فى أوقات عصيبة عسيرة . ونجد ، فى التاريخ ، مدآ عاليا فى بحر الحياة يحمل أضعف السابحين عزيمة إلى قمة النجاح . وجيلكم يسبح ضد التيار فى بحر خضم كثير الأمواج . وإن هذا لشاق عليكم . فمنذ الدقائق الأولى ستنقطع أنفاسكم ، وستيأسون من الوصول إلى الشط سالمين . فلتتشددوا وتثبتوا . فآخرون ، من قبلكم ، صادفوا أمواجاً شاهقة كأمواجكم ولم يغرقوا . فبقليل من البراعة والشجاعة تحصلون على الراحة والسكينة .

لا تنسوا ، وأنتم منتصرون ، أن النصر البشرى ماهو إلا نصر جزئى مؤقت . فلا شيء من شئون هذه الدنيا يسوى وينظم إلى الأبد . فما من ظفر يبت فى المستقبل البعيد . وما من معاهدة تحدد إلى زمن طويل علاقات الشعوب أو تعين تخومهم . وما من ثورة تنشىء جماعة سعيدة سعادة أبدية . لا تأملوا فى أن إنسانا أو جيلا يكون من حقه ، وقد فرغ من عمله ، أن يلقى العبء عن كاهله ويخلد إلى نعيم مقيم .

لا تكونوا عجولين قلقين . فالثروة والجاه اللذان يولدان فى لحظة يموتان فى لحظة . إنى لأتمنى لكم فى حياتكم عوائق منيعة ونضالا شديدا . فالصراع

يصلب عودكم . وحين تبلغون الخمسين أو الستين أو نحوهما ، ستكتسبون تلك الهيئة القوية الصلبة التي تكون للصخور القديمة التي عجمتها العواصف وابتلتها . سيكون العالم القاسي قد صقلكم وصب قالبكم . ستكونون مبرزين ذوي مكانة ولكن على خلق قوي متين فتقابلون الرأي العام وأحكامه ضاحكين . وحين يكون المرء شابا ، يتبدى له كل شيء فظيعا ، فالعقبات الأولى تزعجه ، وشرور الناس تروعه . فلتحصنوا أنفسكم بملجأ داخلي ضد قسوة البشر والكائنات . فكل إنسان يمكن أن يبني ، في أعمق أغوار فكره ، مخبأ يسخر من أثقل القذائف والأقاويل المسممة . فماذا تخشى نفس في سلام مع نفسها ؟ فلا الإضطهادات ولا الوشايات بقادرة على أن ترد الشاهد الذي تقدمه إلى أفكارها الخفية .

ولتأخذوا الحب أخذاً جديا ، لا مفجعا ، ستصدمون في حداثتكم ، بتفاهة النساء ، وبدلالهن ، وبأكاذيبهن ، وبقسوتهن . فلتزعموا لأنفسكم أن هذه النواحي من طبيعتهن ، ولو أنها حقيقية ، فهي سطحية ظاهرية . ولتذكروا حين تلاحظونهن ، البحر المتقلب الذي يصبح ، لمن يغرمون به ويحيطون بخبره ، صديقاً أمينا . ولتبحثوا ، وراء الصفوف المتراصة من النساء اللائي يعرضن أنفسهن مختارات ، عن نفوس أكثر خفرا وحياء تتردد في الكشف عن رقتها ومنح ثقتها . ولتقسموا ، من كل قلبكم ، يمين الإخلاص لتلك التي تبدو لكم خليقة به . لا تغبطوا « دون جوان » ؛ فقد عرفته معرفة جيدة ؛ إنه كان أشد الناس شقاء ، وأعظمهم هماً ، وأكثرهم ضعفا .

ولتثبتوا وتثابروا ، فإني أعلم أن الإنسان ، ما أن تسوء أموره ، حتى

يرغب فى هجر كل شىء ، فى أن يبدأ حياته مع امرأة أخرى ، وأصدقاء آخرين ، وأن يعيش تحت سماء غير السماء . . لا تغرنكم هذه السهولة الظاهرة . ففى بعض الحالات الشديدة يمكن للشقاء غير المحتمل أن يجعل من الضرورى البدء من جديد . ولكن من الأفضل كثيرا لأغلب الناس أن يفيدوا مما بين أيديهم . وإنها لسعادة عظيمة أن يهرم الإنسان ويموت وسط أولئك الذين نشأ وجاهد معهم .

وأخيرا ، كونوا جريئين غير مختالين . أحبوا ، وفكروا ، واعملوا ، واحكموا ، وكل هذه الأفعال صعبة عسيرة ، ولن تصلوا ، خلال حياتكم فى هذه الدنيا ، إلى تأدية فعل منها أداء كاملا كما كنتم تحلمون فى صباكم . ولكن مهما بدت لكم شاقة قاسية ، فإنها مع ذلك ليست مستحيلة . فقد قام بها من قبلكم أجيال ورجال عديدون ، واجتازوا بين مفازتين من الظلال ، طريق الحياة المنير الضيق . ماذا تخشون ؟ إن دوركم على مسرح الحياة قصير ، وإن المتفرجين زائلون مثلكم .

# تصحيح أخطاء مطبعية

| الصفحة | السطر | الخطأ | الصــــواب |
| --- | --- | --- | --- |
| خ | ١ | الفلافسة | الفلاسفة |
| ٨ | ١٨ | أبصاره | إبصاره |
| ١٢ | ١٢ | الوضحة | انواضحة |
| ٢٠ | ٨ | بردة | برده |
| ٤٢ | ٩ | وإسمى | وأسمى |
| ٤٥ | ٢ | عليها | عليلها |
| ٧٩ | ٤ | يستجموا | يستجمون |
| ٨٠ | ١٠ | يبنياه | يبيناه |
| ١١٨ | ١ | بدية | بداية |
| ١٤٤ | ٧ | بحياة | بحياء |

هذا عدا بعض هفوات أخرى لاتغيب عن فطنة القارىء ؟

الثمن $\frac{\text{م}}{18}$




مطبعة النصر ٢٢ شارع فاروق بمصر تليفون ٥٥١٦١